منهج ابن شهيد النقدي
في رسالة التوابع والزوابع

د . عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى .

وبعـــد

فان للخيال دورا في اثراء العمل الأدبي ، لأن الأعمال الأدبية التي تخلو من الخيال أعمال محكوم عليها بالفناء ، وقد يكون الخيال ــ أحيانا أبلغ من الحقيقة،لأن المتلقي يحتاج ــ أحيانا ــ الى من يخرجه من واقعه الأليم ، وحيـــاته المرة الى عالم مجنح يعيشه بخيـــاله بعيدا عن آلامه القاتلة ، وأحزانه المبرحة التي قد تكون سيطرت عليه ردحا من الزمن .

والأديب المقتدر هو الذي يستطيع توظيف الخيال للدفاع عن قضية، أو لتثبيت فكرة ، أو لصرف الناس عن هموم انتابتهم ، أو آلام برحت بهم ، « ان الخيال الانســـاني جزء من الوجود ، وبينه وبين الأشيـــاء انسجام ضروري ، وحين يحس الشاعر هذا الانسجام يكون في قلب الحقيقة » (١)

---

(١) د. مصـــطفى ناصـــف . الصورة الأدبية ص ٧ ط دار مصر للطباعة .

ان المظهر العام لخيال المتفنن هو ذاك الالهام الذى يعتبر نضجا مفاجئا غير متوقع لكل ما قام به الشاعر من قراءات ومشاهدات وتأملات، أو لما عاناه من تحصيل وتفكير يقال ان الالهام يظهر بعد فترة من الراحة والكمون مفيدا من أثر تلك الراحة نفسها ، ذلك أن تلاشى الانتباه يحرر التفكير من بعض الطفيليات التى تكون عقدا تعوق التفكير فى سيره فضلا على أنه يساعد على تفكيك عناصر المشكلة » (٢) .

واذا كان النقاد القدامى لم يولوا هذا الجانب اهتماما خاصا ، واعتبروه لونا من التخيل ، بل انهم أحيانا أضافوه الى جانب الابهام ، فيعكس أثر هذا الادراك للخيال فى النقد العربى ، فيما سماه عبد القاهر « التخيل » أو الايهام بالكذب ولهذا يكون من العبث — كما يقول الدكتور محمد غنيمى هلال — « أن نربط بين الخيال والصورة فى النقد العربى القديم ، لأن كليهما ذو مفهوم مستقل عن الآخر ، والربط — فى منظورهما الحديث — لم يوجد الا منذ عهد قريب » (٣) .

وعلى الرغم من أن النقاد القدامى — لم يركزوا على هذا الجانب فى دراساتهم الا أن الشعراء لم يهملوه ، وشعراء العصر الجاهلى خير مثال على ذلك فقد رأينا كثيرا منهم من يلجأ الى الخيال يجمل به صوره، ويوشى به كلامه ، ولعل وصف الروضة الذى أتى به عنترة فى طويلته يكشف لنا عن خيال ثر ، وروح شفافة تثير أغوار النفس ، وتستلهم عظمته .

« وقد يبلغ ذلك المبلغ فى وصف خلجات النفس ازاء روعة الطبيعة من شعر هذا العصر ذى الطابع الفنى وصف امرىء القيس لما كان يشعر به أمام جمال الدنيا ، بعد أن كف المطر عن السقوط ، وصفا الجو ، ورق

---

(٢) د. مصطفى ناصف . الصورة الأدبية ص ١٢ ط. دار مصر للطباعة .

(٣) د. محمد غنيمى هلال النقد الأدبى الحديث ص ١٦٧ . ط دار مطابع الشعب ١٩٦٤ م .

النسيم ، ودلفت العصافير من أوكارها تتغنى بالطبيعة وتهتف بجمالها سكرى من حلاوة ما تحس وتلقى فى صبح ذلك اليوم المبتل الخصيب :

كـأن مكـاكى الجـوا غديـة
صبحن سـلافا من رحيق مفلفل (٤)

ولكن هل هذا هو المعنى الذى نقصده بالخيال فى هذا البحث ؟ اننا ـ بالطبيعة ـ لا نقصد ذلك الجانب مزينا بكثير من الصور الاستعارية ، وانما نقصد لونا آخر من الخيـال ينقل فيه الأديب المتلقى الى جو لم يألفه ، وعالم لم يعرفه .

ان رسالة النوابغ والزوابغ خيال ينقل المتلقى الى عالم الجن ، ثم تقدم له ذلك العالم تقديما يجعله كأنه يعيشه فى عالم الحقيقة والواقع ، انه مجتمع يموج بكل ضروب الحياة وأفانينها ويضطرب بكل همومهـا ومشـكلاتهـا .

وليس عجبا أن نقول ان العرب القدامى عرفوا ذلك اللون من الخيال عندما تصوروا أن هناك مخلوقات مخيفة لم يروها ، ولكنهم تخيلوهـا بعقولهم ، حتى كادت تصـل الى حقـائق الأشـياء ، فذكروا كلمـة « العنقاء » (٥) وحاولوا ايجاد سبب لتسميتها ، فمنهم من يقول انهـا

---

(٤) نجيب محمد البهبيتى : تاريخ الشعر العربى من آخر القرن الثالث الهجرى ص ٥٦ ط دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

(٥) العنقاء طائر ضخم ليس بالعقاب ، وقيل العناء المغرب كلمة لا أصل لها ، يقال انها طائر عظيم لا ترى الا فى الدهور ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة وقال .

ولولا سليمان الخليفة خلفت به من يد الحجاج عنقـاء مغرب

وقيل سميت . عنقاء لانه كان فى عنقها بياض كالطوق ، وقيل

طائر ضـــخم كان ينزل على جبل فينقض على من يلحق به فيغرب به ، ومنهم من يقول انها سميت عنقاء لبياض كان فى عنقها كالطوق ، وكل هذه الآراء لا تخرج عن كونها ضربامن الحدس والتخمين لمخلوق خيالى متوهم تصورته العرب لا وجود له ، ولكن الخيال فعل فعله ، فجعلهم يتصورون ما تصوروا •

والأمم فى فترة طفولتها قد تتصـــور أشـــياء بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، وكذلك يصنع الناس بأطفالهم حيث يوهمونهم بأن هناك أشياء مخيفة ان هم تجاوزوا مكانهم أحدثت بهم مخاطر ، وأصـــابتهم بشر ، فيخاف الأطفال لمجرد ذكر هذه المخلوقات المتوهمة •

ولم تكن أمة العرب بدعا فى ذلك فان امة اليونان قد ســـبقتهم الى الخرافات أو الأشياء المتخيلة ، وقد ذكرت لنا كتبهم كثيرا من القصص الخرافية حتى ان هومروس قد بنى الالياذة والأوديســـا على خرافات كان اليونانيون يعتقدونها •

ان هذا المنهج الخرافى ، أو الخيالى له دلالته القوية على عقليـــة الأمم ، ونضجها الفكرى ولعل العرب أقل من غيرهم ايمانا بالخرافات ،

العنقـاء فيما يزعمون : طائر عند مغـرب الشمس . وقال الزجـاج : العنقاء المغرب طائر لم يره أحد .. وقال ابن الكلبى : كان لأهل الرس نبى يقال له حنظلة بين صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له دمخ مصعده فى السماء ميل فكان بنتابه طائر كاعظم ما يكون له عنق طودل من أحسن فتاكلها . فجاعت فانقضت على صبى فذهبت به ، فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت ، وضـــمتها الى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت بها ، فشكوا ذلك الى نبيهم . فدعا عليها فسلط الله عليها آفة فهلكت فضربتها العرب مثلا فى أشعارها » لسان العرب مادة « عنق » •

لأنهم كانوا قريبين من مواطن الديانات السماوية ، بل كانوا مجاورين لحضارات اكتسبت منها كثيرا من المعارف ، ومن تحكيم للعقل الذى لايقبل كثيرا مما قبلته بعض الأمم .

والأمر ما جاء القرآن الكريم موافقا فى بعض تشبيهاته لما جرى عليه الالف العربى ، فقد صور الزقوم فقال « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » الآية ٦٥ الصافات .

يقول الزمخشرى « وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهية وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير ، فيقولون فى القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ، واذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقد وأهوله »(٦) .

ويقول القرطبى فى بيان هذه الآية « قيل يعنى الشياطين بأعيانهم ، شبهها برءوسهم لقبحهم ، ورءوس الشياطين متصور فى النفوس وان كان غير مرئى ، ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة ، هو كصورة ملك ، ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » وهذا تشبيه تخييلى روى معناه عن ابن عباس والقرظى ، ومنه قول امرىء القيس :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وان كانت الغول لاتعرف ، ولكن لما تصور من قبحها فى النفوس » (٧) .

---

(٦) الزمخشرى : الكشاف ج ٣ ص ٢٤٢ ط مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٧) القرطبى : الجامع لاحكام القرآن ج ٨ ط دار الشعب .

وعلى هذا فان العنقاء ورءوس الشياطين والغول من الأمور المتخيلة التى عرفها المجتمع العربى ولم ير الأدباء والشعراء خروجا على الالف المعام فى استعمالها .

وهناك أمر آخر عرض له القرآن الكريم أيضا وذكر فى أكثر من موضع بل ان هناك سورة من سور القرآن سميت به بدأها الله سبحانه وتعالى بقوله لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » (سورة الجن الآية ١ ، ٢) .

وعالم الجن مما عد قرينا لعالم الانس ، بل ان الجن والانس توجه اليهما الخطاب فى قوله تعالى « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » وهذه الآية تأتى تالية لقوله تعالى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » والثقلان كما يقول الزمخشرى : الانس والجن . سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض .

ان هذا العالم مما علمه المسلمون ، وحدثهم به القرآن الكريم ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد نبههم الى أن الجن منه مؤمن وكافر ، ومطيع وعاص . لقد وضع علماء التوحيد تعريفا للجن ، فقالوا : انها أجسام هوائية لطيفة تتشكل بأشكال مختلفة ، وتظهر منها أفعال عجيبة منهم المؤمن ومنهم الكافر ، وهم كبنى آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون ويكلفون .

بم تأثر ابن شهيد :

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل تأثر ابن شهيد بحادثة المعراج أم أنه تأثر بما تقدم من الحديث عن الجن وعالمهم ، وما كان يعتقده العرب من أن هناك واديا يقال له وادى عبقر تسكنه الجن ؟ (٨) .

---

(٨) « عبقر » موضع بالبادية كثير الجن ، يقال فى المثل كأنهم

ان الباحث لهذا الموضوع يرى أن الأدباء المحدثين لم يشيروا الى موضوع التأثر هذا فأغفلوا كل حديث للعرب عن الجن وعن وادى عبقر ، وعن القصص الخرافى الذى كان العرب يسوقونه فى أشعارهم ، وحاول بعضهم أن يجعل ابن شهيد متأثرا بقصة المعراج فقال (٩) « على أنه لا يمكن أن يغفل النبع الحقيقى لهذا النوع من القصص ، فهو مصدرها الأصلى . وجذرها الخفى ، ذلك المصدر هو قصة المعراج الاسلامية التى تحكى صعود محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الاسراء الى السموات على ظهر براق ، وفى صحبته جبريل عليه السلام ، حيث رأى عالما آخر غير عالمنا الذى نعيش فيه ، فالمعقول أن تكون قصة المعراج هى أول قصة فى التراث العربى ، ينتقل فيها البطل الى عالم آخر على ظهر فرس يسابق

جن عبقر ـ الجوهرى : العبقر موضع تزعم العرب انه من ارض الجن قال لبيد :

ومن قاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

ثم نسبوا الى كل شىء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوته فقالوا « عبقرى » وهو واحد وجمع والأنثى عبقرية . قال ابن برى : قول الجوهرى : العبقر موضع : صوابه أن يقول : عبقر بغير ألف ولام لأنه علم لموضع كما قال امرؤ القيس :

كأن صليل المروحين تشذه صليل زيوف ينتقدن بعبقرا

وكذلك قول ذى الرمة :

حتى كأن رياض القف البسها من وشى عبقر تجليل وتجنيد

قال ابن الأثير : عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا . فكلما رأوا شيئا فائقا غريبا مما يصعب عمله ويدق ، أو شيئا عظيما فى نفسه نسبوه اليه فقالوا « عبقرى » (لسان العرب) .

(٩) د. احمد هيكل ـ الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة

الريح ، وفى صحبة رائد يرود الطريق ، وينتقل بالبطل من جو الى جو ، ومن مشهد الى مشهد من أجواء ومشاهد لاتعرف فى دنيانا نحن .

ثم يذكر الدكتور هيكل ، قضية أخرى فيقول « والمعقول ــ أيضا ــ أن تكون قصة المعراج وما اشتملت عليه من أوصاف للجنة والنار ، وطوائف المنعمين والمعذبين قد أمدت أبا العلاء بكثير من المشاهد التى ضمنها « رسالة الغفران » ، وعلى هذا يرجح أن يكون أبو العلاء قد أفاد من التوابع والزوابع ، وخاصة من ناحية مناقشة الأدباء ، وعرض بعض مسائل الأدب ، وأفاد كذلك من المعراج ، وخاصة من ناحية وصف الفردوس والجحيم ، وعرض بعض مشاهد الآخرة » (١٠) .

ان قصة المعراج التى حدثت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والتى رآى فيها كثيرا من المشاهد فى السماء ، وفى الجنة والنار لن تكون الملهم لهذا اللون من القصص ، ذلك لأن المسلمين جميعا يعتقدون أن المعراج كان بالروح والجسد معا ، وليس ثمة ما يشير الى جانب الخيال فيها . لأن القرآن الكريم ذكر الاسراء بقوله « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » (الاسراء ١) .

فالجسم والروح هما قوام الاسراء والمعراج ، أما حديث ابن شهيد فى التوابع والزوابع فهو ضرب من الخيال أوحتبه ــ فيما اعتقد ــ تلك الفكرة التى كانت سائدة عند العرب بأن لكل شاعر شيطانا يلهمه الشعر ، وأن هناك ــ واديا ــ تسكنه الجن يقال له « عبقر » كما ذكر صاحب اللسان ، ووافقه الجوهرى وغيره ، ولعل ذلك ما تؤكده التسمية ، لأن التوابع جمع تابع وتابعة وهو الجنى والجنية يكون مع الانسان يتبعانه

---

(١٠) د. أحمد هيكل ــ الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٣٨٥ ط دار المعارف .

حيث ذهب ، والزوابع جمع زوبعة ، وهو اسم شيطان ، أو رئيس للجن ومنه سمى الاعصار زوبعة اذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء فى القاموس المحيط (١١) .

ويبدو أن التشابه الظاهرى فى الموضوع جعل المحدثين يجزمون بتأثر ابن شهيد بالمعراج لكن النظرة الفاحصة ترى أنه لا تشابه بين مسرح الموضوعين فابن شهيد جعل مسرح أحداثه عالم الجن فى الدنيا ، وأبو العلاء جعل مسرح أحداثه الفردوس والجحيم فى الآخرة ، والأخير قريب الشبه جدا بالمعراج ، لأن الرسول رأى فى رحلته المنعمين فى الفردوس ، والمعذبين فى الجحيم ، وكذلك الشخوص مختلفون ، فبينما يتخذ ابن شهيد شخوصه من الجن وهؤلاء ليس لهم وجود فى المعراج اذ بأبى العلاء يتخذ شخوصه من انس تسخرهم الملائكة ، أو الشياطين وهو ما له وجود فى رحلة المعراج ، وهناك جانب اختلاف آخر بين الرسالتين فبينما يعرض ابن شهيد للمشكلات الأدبية والبيانية اذ بأبى العلاء يعرض للمعضلات الدينية ، والمشكلات الفلسفية ، حقيقة أن كلا الرجلين يعرض بمعاصريه ، ويرميهم بالجهل والحمق فى معالجة القضايا الفكرية والأدبية الا أن هذا الجانب فى رسالة كل منهما مختلف ، وهو ما يجعلنا نرجح تأثر أبى العلاء الواضح بمعجزة المعراج بينما تأثر ابن شهيد بذلك الجانب الخيالى الذى

---

(١١) قال صاحب اللسان : التابعة : الرئى من الجن الحقوء الهاء للمبالغة ، أو لتشنيع الأمر أو على ارادة الداهية ، والتابعة : جنية تلحق الانسان ، وفى الحديث : أول خبر قدم المدينة يعنى من هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - امرأة كان لها تابع من الجن » .

والزوابع والزوبعة : ريح تدور فى الأرض لا تقصد وجها واحدا تحمل الغبار ، وترتفع الى السماء كأنه عمود أخذت من الزبع ، وصبيان الأعراب يكنون الاعصار أبا زوبعة : يقال فيه شيطان ما رد ، وزوبعة : اسم شيطان مارد ، أو رئيس من رؤساء الجن ، ومنه سمى الاعصار زوبعة » لسان العرب .

كان مألوفا عند العرب ، وهو وجود واد تسكنه الجن يقال له « عبقر »، وما أثرعنهم ــ أيضا ــ من وجود شيطان لكل شاعر يلهمه الشـــعر . وينفث به اليه ، وهو ما قرره ابن شهيد ، بل جعله حقيقة عندما أعلن أن زهير بن نمير تبعته كان يلهمه الشعر وينفث به اليه فهو يقول : «وكان لى فى أوائل صبوتى هوى اشتد به كلفى ، ثم لحقنى بعد ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل ، فجزعت ، وأخذت فى رثائه يوما فى الحائر (١٢) وقد أبهمت على أبوابه ، وانفردت فقلت :

تولى الحمـــام بظبى الخـــدور
وفـــــاز الردى بالغزال الغرير

الى أن انتهيت الى الاعتذار من الملل الذى كان فقلت :

وكنت مللتك لا عـــــن قلـــــى
ولا عن فساد جرى فى ضـــميرى

فارتج على القول ، وأفحمت . فاذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه ، وقد اتكأ على رمحه وصاح بى،أعجزا يافتى الانس ؟ قلت لا وأبيك : للكلام أحيان أو هذا شأن الانسان ، قال لى قل بعده .

كمثـــل ملال الفتى للنعيـــم
اذا دام وحـــــــال السرور

فأثبت اجازته ، وقلت له : بأبى أنت ــ من أنت ؟ قال : أنا زهير ابن نمير من أشجع الجن فقلت . وما الذى حداك الى التصور لى ؟ فقال: هوى فيك ، ورغبة فى اصطفائك قلت : أهلا بك أيها الوجه الوضـــاح ،

---

(١٢) الحائر : المكان المطمئن يجتمع فيه الماء ثم سموا البستان به

صادفت قلبا اليك مقلوبا ، وهوى نحوك مجنوبا ، وتحادثنا حينا ، ثم قال : متى شئت استحضارى ، فأنشد هذه الأبيات :

وآلى زهير الحب يـــاعز انـــه
اذا ذكرته الذاكرات أتـــاهـــا
اذا جرت الأفواه يوما بنكرهـــا
يخيل لى أنى أقبل فـــاهـــا
فأغشى ديـــار الذاكرين وان تأت
أجـــارع من دارى هوى لهواها

وأوثب الأدهم جدار الحائط ثم غاب عنى « (١٣) .

هل تأثر أبو العلاء بابن شهيد ؟

حـــاول الكتـــــاب المحدثون أن يجعلوا أبا العلاء المعرى متأثرا بابن شهيد ، وان كنت أرى ــ كما أسلفت آنفا ــ أن مجال التأثر بين الكاتبين ضعيف ، وان كان هناك تأثر فانه يكون فى الفكرة العامة وهى كتابة رسالة لصديق تحمل بعض القضـــايا الفكرية والأدبية ، وبعض الأحكام النقدية ، وقد أثبت ذلك الدكتور زكى مبارك (١٤) ، وتـــابعه الدكتور أحمد هيكل مع اختلاف فى تاريخ كتابة رسالة التوابع والزوابع ، فبينما يرجح الدكتور زكى مبارك أن رسالة التوابع والزوابع كتبت عام ٤٠٧ هـ يرى الدكتور أحمد هيكل أنها كتبت سنة ٤١٥ هـ .

---

(١٣) أبو الحسن على بن بســام الشنترينى : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ق ١ مجلد ص ٢٤٧ تحقيق د. احسان عباس ط دارالقثافة بيروت والمقطوعتان بديوان ابن شـــهيد تحقيق يعقوب زكى ص ١٠٦ . ١٠٧ ط دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ــ القاهرة .

(١٤) د. زكى مبـــارك : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجـــرى جـ ١ ص ٣١٨ ط دار الجيل لبنان .

يقول الدكتور زكى مبارك ــ بعد أن عرض لرأى الدكتور أحمد ضيف الذى أملاه على طلابه فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٢ م والذى يرى فيه أن رسالة التوابع والزوابع محاكاة لرسالة الغفران ، وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وأن أهل الأندلس كانوا يقلدون أهل المشرق فى كل شىء وأقوى حجة عند الدكتور أحمد ضيف أن عصر ابن شهيد يندرج فى عصر أبى العلاء فقد عاش ابن شهيد من سنة ٣٨٢ هـ ــ سنة ٤٢٦ هـ ، وعاش المعرى سنة ٣٦٣ هـ ــ سنة ٤٤٩ هـ ــ بعد أن عرض لهذا يقول: «وقد رأينا تحقيق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع ، فلم نهتد ، ولكن رأينا فى الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل، فقد جاء على لسانه ما يشير الى أن من اخوانه من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة (وهذا الكلام ــ كان ردا على سؤال نقله أبى عيسى ــ لا على لسان أوزة كما يقول الدكتور زكى مبارك) .

وبعد مناقشة لبعض ما جاء بالرسالة يقول الدكتور زكى مبارك : ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة « التوابع والزوابع » كتبت بين سنة ٤٠٣ هـ وسنة ٤٠٧ هـ ، ثم يقول .. وقد بحثنا طويلا فى كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعرى رسالة الغفران فلم نهتد ، ولكننا وصلنا بعد التأمل الى تقريب التاريخ ذلك أن رسالة الغفران جواب على رسالة ابن القارح ، وقد عدنا الى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى انتهينا الى قوله « وكيف أشكو من فاتنى وعالنى نيفا وسبعين سنة » فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ، ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ هـ فاذا نظرنا الى هذا الرقم ــ ٧ ــ وجدناه كتب رسالته حوالى سنة ٤٢١ هـ ، وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة ٤٢٢ هـ ، واذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفا وسبعين ، وللنيف دلالته ، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الاجابة بأنه

مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران قد كتبت ما بين سنة ٤٢٢ هـ و ٤٢٤ هـ (١٥) ٠

يقول الدكتور زكى مبارك فى هامش الصحيفة « بعد تحرير هذه المسألة وصلنا الى نص فى رسالة الغفران يدل على أنها كتبت سنة ٤٢٤ هـ اذ يقول المعرى :« ولايجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ابن فلان ثم يقول ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة ، وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أن ابن شهيد قلد أبا العلاء ، وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلد ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق فى كل شىء وكان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية فى الأندلس بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ، ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت ، وقبل أن توضع رسالة الغفران (١٦) ٠

وعلى الرغم من أن الكاتبين الكبيرين قد اتفقا على أسبقية ابن شهيد ، وعلى أن أبا العلاء متأثر به ، ومحاك له ، فاننى أرى كما أسلفت أن هذا التأثر تحول بينه أمور كثيرة ، لأن كل واحد منهما سلك نهجا هو بعيد كل البعد عن نهج صاحبه ، وقد تكون الفكرة العامة مشتركة بينهما ، أو تتراءى أمام النظرة العابرة كذلك ، ولكن النظرة المتأنية تدفع ذلك الاشتراك ، فقد أوحت لابن شهيد أساطير العرب وخيالاتها عن الجن والمخلوقات العجيبة ، بنما أوحت لأبى العلاء المعرى رحلة المعراج التى

---

(١٥) زكى مبارك ٠ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣٢٠ المرجع السابق ٠

(١٦) د٠ زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع جـ ١ ص ٣٢٠ المرجع لسابق ٠

التقى فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمنعمين والمعذبين من أمته ، وهو ما اتخذه أبو العلاء مسرحا لأحداثه .

ابن شهيد الناثر الشاعر :

لقد عمرت كتب التراجم بالحديث عن حياة ابن شهيد وأخباره ، وأهم ترجمة يمكننا الرجوع اليها هى ترجمة أبى الحسن على بن بسام الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ والتى رجع اليها جل الذين ترجموا لابن شهيد ، حتى ان الترجمة التى وردت له فى المغرب (١٧) بدأت الترجمة التى وردت فى المجلد الأول من الذخيرة لابن بسام تحت عنوان بقوله « هو أعظم هذا البيت شهرة فى البلاغة وقال ابن بسام فى وصفه : « شيخ الحضرة وفتاها ونادرة الفلك الدوار ... الخ » وهى نفس « فصل فى ذكر الوزير الكاتب أبى عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد وسياقة جملة وافرة من نظمه ونثره » (١٨) .

ثم يقول عنه : وكان أبو عامر شيخ الحضرة وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأساتها ، ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، ان هزل فسجع الحمام ، أو وجد فزئير الأسد الضرغام » (١٩) .

---

(١٧) المغرب فى حلى أهل المغرب جـ ١ ص ٧٨ حققه وعلق عليه الدكتور شوقى ضيف ط دار المعارف ١٩٦٤ م .

(١٨) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة القسم الأول جـ١ ص١٩١ وما بعدها تحقيق د. احسان عباس . ط دار الثقافة بيروت .

(١٩) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة القسم الأول جـ١ ص١٩٢ وما بعدها تحقيق د. احسان عباس . ط دار الثقافة بيروت .

ولسنا الآن أمام تحليل لهذه الآراء التى ساقها ابن بسام ، أو بيان لتلك الأوصاف التى أضفاها على ابن شـــهيد ، لأن هذا القول لم يحن وقته بعد،لأننا عنينا ببيان أن أهم ترجمة يمكننا الرجوع اليها هى ترجمة ابن بسام التى حشدت كثيرا من نثره وشعره ، والتى احتفظت لنا بجزء غير قليل من رسالة التوابع والزوابع ، والتى عقدنا هذا البحث لبيان ما فيها من قضايا أدبية ونقدية ، وتجلية ما غمض على القارىء منها .

لقد عاش ابن شهيد هذه الفترة العصيبة ، وتلك المحن القاسية التى عمت بلاد الأندلس فقد ولد فى بيت أبيه بقرطبة سنة ٣٨٢ هـ فى عهد المنصور بن أبى عامر ، ونشأ فى مهاد النعمة والعيشة الراغدة الهنية،وكان له من ثراء أسرته ، وسعة نفوذها ، ومتين صلتها بالأسرة الحاكمة ما يكفل له المستقبل ، ويغريه بالاقبال على متع الحياة (٢٠) .

ولقد امتدت حياة ابن شـــهيد من ســـنة ٣٨٢ هـ الى سنة ٤٢٦ هـ فصحب الدنيا خلال هذه الحوادث الجسام ، والخطوب المروعة ، وتقلب على عينه سقوط دولة العامريين ، وانهيـــار الخلافة الأموية ، وتدهور الخلافة الحمودية ، واستعانة الأمراء والخلفاء المسلمين بعضهم على بعض باستدعاء الأسبانيين الذين كانوا يتقاضون ثمن هذه المساعدات بالاستيلاء على الحصون المنيعة ، والأماكن الصالحة من الناحية الحربية الاستراتيجية وكانت هذه الأحوال السيئة تضطر ابن شهيد الى محاولة الانغماس فى السياسة والتقرب من الحاكمين ليحفظ رأسه ، ويستبقى مكانة أسرته ويسد مفاقرة فقد كان الرجل مسرفا متلافا (٢١) .

---

(٢٠) موسوعة تراث الانسانية المجلد السابع ص ٢٨٩ من مقال للأستاذ على أدهم ط وزارة الثقافة .

(٢١) موسوعة تراث الانسانية المجلد السابع ص ٢٩٤ من مقال للأستاذ على أدهم ط وزارة الثقافة .

واذا كانت المصادر التى تحدثت عن ابن شهيد فيها غناء لمن يريد أن يعرف الكثير عن حياته ، بل أن فيها الكثير لمن يريد أن يعرف الكثير عن وضعه الاجتماعى والأدبى ، واذا كنت فى هذا البحث أحاول الوقوف على جانب من تلك الجوانب التى برز فيها ابن شهيد فان الأمر يقتضى أن أنبه القارىء الى ضرورة الرجوع الى تلك المصادر (٢٢) ، حتى يستطيع معرفة كل شىء عن ذلك الشاعر الناثر الذى أخذ حظه من ذيوع الصيت ، وبعد المنزلة فقد كان ابن شهيد كما يقول عنه ابن خلكان « من أعلم أهل الأندلس متفننا بارعا فى فنونه ، وبينه وبين ابن حزم الظاهرى مكاتبات ومداعبات ، وله التصانيف الغريبة البديعة منها كتاب « كشف الدك وايضاح الشك » ، ومنها كتاب « التوابع والزوابع » ومنها حانوت العطار ، وغير ذلك ، وكان فيه مع هذه الفضائل كرم مفرط ، وله فى ذلك حكايات ونوادر » .

ولعل الذين كتبوا عنه من المشارقة رجعوا الى ما كتبه المغاربة والأندلسيون ، بل لعلهم جميعا رجعوا الى ما كتبه ابن حيان عنه ، فقد كان أول المتحدثين عن ابن شهيد ، حتى ان ابن بسام يقول عنه « وقد ذكره أبو مروان بن حيان فى غير ما موضع من كتابه فقال « كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام ، واذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر فى البلاغة سننه قلت عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى زمانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته الى ما شاء من نثره ونظمه فى بديهته ورويته فيقول الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولارسوخ فى الأدب ، فانه لم يوجد له — رحمه الله — فيما بلغنى بعد

---

(٢٢) ترجم له الحميدى فى الجذوة ، وأشاد به فى الأدب والبلاغة ، وترجم له الضبى فى البغية ، والفتح فى المطمح ، والثعالبى فى اليتيمة ، وياقوت فى معجم الأدباء ، والعماد فى الخريدة وابن دحنة فى المطرب وابن فضل الله العمرى فى المسالك وابن العماد فى الشذرات .

موته كتاب يستعين على صناعته ويشحذ من طبعه الا ما لا قدر له فزاد ذلك فى عجائبه ، واعجاز بدائعه »(٢٣) .

هذا الكلام من ابن حيان والذى يكاد كثير ممن كتبوا عن ابن شهيد ينقلونه عنه يجعلنا نقف على الطريقة التى اتبعها هؤلاء المؤرخون ، فهم يضفون كثيرا من صفات الجمال عليه ، ويطنبون فى ذكر كثير من عجائبه وبدائعه ، بل ان ابن حيان ذكر أنه لم يكن من هواة جمع الكتب والرجوع اليها وعد ذلك منه اعجازا ، بل انه لم يكن يعنى بطلب العلم من مصادره فهو أعجوبة من عجائب الدهر ، ومعجزة من معجزات العصر .

ويبدو كما أسلفت أن جميع من كتب بعد ابن حيان قد رجع اليه فى اضفاء هذه الصفت على ابن شهيد ، فقد سلك ذلك المنهج — أيضا — ابن بسام فى الذخيرة وصاحب المغرب وغيره . وهى صفات تجعلنا نقرر ونحن مطمئنون أن هذا الاتجاه لن يجعلنا نتخذه دليلا قاطعا ، وحكما صائبا على علم ابن شهيد وأدبه ، فقد يكون الاتجاه الغالب عليهم اضفاء الصفات على كل شخصية يعرضون لها ، وحشد كثير من هذه الصفات لمجرد أن هذا الكتب،أو ذلك الشاعر قد كان له دور فى الوزارة فى فترة من الفترات،فالباحث يجب عليه أن يقف طويلا عند ذكر هذه الآراء، وأن يرجع الى نثر ابن شهيد ، حتى يخرج بنتائج لها أصالتها أو لها دلالتها القوية على أصالة هذا الكاتب ، ومدى فعالية آرائه التى سطرها فى مجال الأدب والنقد .

نثر ابن شـــهيد :

واذا رجعنـــا الى كتاب الذخيرة — وهو المصـــدر الرئيس فى نثر ابن شهيد — وجدنا أن هذا النثر يمثل اتجاهين متباينين ، اتجاهـــا

---

(٢٣) بن بسام الذخيرة القسم الأول جـ١ ص ١٩٢ المصدر السابق

سار فيه سيرة كتاب الرسائل الاخوانية الذين يعتمدون على السجع ، وعلى حشد كثير من الكلمات الغريبة،والعبارات التى دلل بها على اقتداره على التحكم فى ناصية البيان ، اما الاتجاه الثانى فسيأتى الحديث عنه عند عرضنا لرسالة « التوابع والزوابع » •

والحديث عن رسائل ابن شهيد يدفعنا الى ذكر نماذج منها كى يتبين القارىء منهج الرجل فى رسائله التى كتبها للاستعطاف حينا ، ولشكوى الزمن حينا ، ولتعليم الناشئة حينا ، فهى رسائل متباينة فى فكرتها ، متباينة — أيضا — فى صياغتها ، فبينما نجده فى بعضها ينزل سهلا ، ويصعد جبلا ، ويركب حزنا اذا بك تجده فى أخرى يرق ويلطف ، فيهدل هديل الحمام ، ويغرد تغريد البلابل •

يقول ابن بسام تحت عنوان جملة من كلامه فى أوصاف شتى : « فصول من رقعة خاطب بها المؤتمن بن العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، (٢٤) يقول : لولا أن من العادة بين السادة والمسودين ، والمالكة والمتملكين تطرح الأدمة(٢٥) ، وتتدارس لطائف الحرمة لأكبرته — أيده الله — عما أرغب ذكره ، وأكرمته عما أطلب نشره ، ولولا أن من السياسة وعقد الحزالة تذكير أهل العلياء بسوالف النعماء لربأت بما بنته الآباء والأجداد ، وضربت بينه وبين الآفات بالأسداد عن أن أحرز منه بتذكير ، أو دفع عنه بتقدير ، ولولا أن التطويل فيما أقصد قصده، وأنحو نحوه على زماننا وشاغله ، ومجد خطبنا وهازله موجب للقول ، وموجد للسبيل الى الطعن ممن ضعف حجاه ، وقصر به مرماه لرسمت اليه من

---

(٢٤) المؤتمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر الذى كان يلقب أيضا بالمنصور ، ثم سماه خليفة قرطبة القاسم بن حمود بن المؤتمن ذا السابقتين ، وقد ظل واليا على بلنسية حتى مات سنة ٤٥٢ هـ

(٢٥) الأدمة بسكون الميم : القرابة •

الورق أعداد الورق (٢٦) ، ولرغمت اليه من المهارق أشباه النمارق (٢٧) .

وهى رسالة طويلة كتبها الى المؤتمن يذكره فيها بما كان لأبيه من نعم عليه حينما كان طفلا صغيرا وكان يختلف الى قصر عبد العزيز ابن عبد الرحمن يوم أن كان والد ابن شهيد عاملا عندهم وكانوا يحنون عليه ويعطفون ، ويخففون عنه برحاءه ، وبه يحتفون فهو يقول « صرت الى بيته فى يوم مطير وأنا ابن خمس ، أذكر ذلك ذكرى لما كان بالأمس ، وكان من اكرامه لى ولطيف اهتمامه بى ما يطول به الكتاب ، ولا يحتمله الخطاب ، ثم يتحدث عن حفاوته به ، واعطائه تفاحة كبيرة لم يستطيع الأكل منها فأخذ يقطع له بفمه ويؤكله ، ثم أرسله الى داخل البيت ، فقد دعا فتى يكنونه « أبا شاكر » فقال : احمله الى امك ، وأرفق به فى أمك(٢٨) ، فأخذ بيدى أمامه ، وابتدرا يسيران بى قدامه ، وأنا لا أسمح فى القياد لشدة ذلك الوابل ، وتتابع قطر ذلك الهاطل ، فصاح بهما ، أقلاه فاحملاه على أعناقكما ، وسوقا به سوقا رفيقا أحسن مساقكما ثم تحدث عن ذلك اللقاء وتلك الحفاوة التى قوبل بها من أمها ، وهذه الهدايا التى حملها وكل ذلك يعود الى ما كان عليه الآباء من الحفاوة بالأبناء ، وهو فى كل هذا يذكر المؤتمن بما يجب عليه نحوه ، ثم يصرح له فى آخر الرسالة بما يريد صراحة حيث يقول : « ومملوكك عاكف على الوطن عكوف الراهب على الوثن ، ولم يبق من النعمة غير مصاحبة بلة

---

(٢٦) الورق الأولى بفتح الراء ، والثانية بكسرها:الفضة ، والمهرق الصحيفة البيضاء يكتب فيها والجمع المهارق : فارسى معرب .

(٢٧) ابن بسام الذخيرة القسم الأول جـ ١ ص ١٩٣ ـ ١٩٩ المصدر السابق .

(٢٨) أمك بفتح الهمزة : قصدك .

قد آن لها أن ترتشف وتفاهة تمرة حـان لهـا أن تخترف (٢٩) وعرج لمآله ، والنظر لعاقبة حاله على استخراج ما يمكن من أصول نعمتكم ، ليصون بها جمة وجنته ، ويفر عليهـا نطفة صفحته . اذ لا سبيل الى التعريج على غير ذلك قطعا ولا الى الالتباس بسواه حتما ، ولو لحس التـراب ، وذاب فى الثيـاب ، فـانه يتنفـس عن نفـس همتهـا الكوكب ، وهمهـا الغبهب ، فلولا همتها لأظلم الدهر ، ولولا همهـا لأسفر الأمر ، وهذا موضع الحدس لا افتراء،وخليقة النفس لا ادعاء، ووعد الوزير عباس بصرف ضيعة لى بجهة تدمير ، حالت الفتن دونها ، واضطراب الأحوال عن مطالعتها ، وأنا أسأل فضلك سـؤال المدل فى استنجاز ما وعد ، فانه يعناض عن شكرى له ، وثنائى عليه ، وصدعى فى المحافل بفضله أجل فائدة يصطفيها ، وأكرم نفيسة يقتنيها » .

ثم يذكر بعد ذلك أن والده « أى والد ابن شهيد » كان عاملا على هذه الضياع من قبل والده ، واستعفى منها ، ويذكر له الرسالة التى كتبها والده عند طلبه الاستعفاء ، ثم يشفع كل ذلك بقصيدة يمدح بها المؤتمن يقول فيها :

أما الرياح بجو عاصم فحلبن أخلاف الغمائم(٣٠)

ويستمر فى غزل رقيق ، وأوصـاف رقراقة ، ويطول نفسه فى ذلك حتى يخلص الى مدح المؤتمن فيقول :

وبعيدة الأرجاء نا زحـة على أيدى الرواسم

---

(٢٩) تخترف : تجتنى ، أو تدخل فى فصل الخريف : أى الزوال والنهـاية

(٣٠) الذخيرة القسـم الأول جـ ١ ص ١٩٩ ، والديوان من ص ١٥٥ ـ ١٦٠ المرجع السابق .

لا تدعى جوبا لها ذات الخوافى والقوادم
من فتنة قد أسبلت ظلماتها بيد المظالم

ثم يقول :

ايه هيا عبد العزيز
وأنت رجام المراجم
قمر تضىء له الخطوب
على دآديها الفواحم
تسرى الرياح بمجده
فنسيمها بالغور فاغم

ثم يقول :

لا نتركن حرم الزمان
على ظبى تلك الصوارم
وارم الخطوب بمثلها
عزما فأنت لها مساهم

ويختمها بالثناء على نفسه وذم أعدائه الذين لا يجيدون مثل هذا اللون من المدح فيقول :

واليكها من ناطق يدعوك اذ صمت البهائم

والقصيدة طويلة تناهز الثمانين بيتا كلها فى مدح المؤتمن ، ولعل رقة القصيدة وجمال كلماتها ، وحسن نسقها تشفع لهذا النثر الذى حمله كلمات ضخمة ، وأسجاعا ثقيلة وعرة .

وهذه رسالة أخرى كتبها ردا على رسالة وردت اليه يقول فيها « ورد كتابك الكريم ، بفضله العميم يتبلج تبلج البرق ، ويتحلب تحلب الودق ، متكسرا فى المشبه ، جاليا لليل الشك والمرية ، قائدا

بأزمة المنى والبغية ، كلما اشتق موجـا غمره ، أو لاعب مرجا بهره ، أو جزع واديا أمده من أنية ، ونعم من أنبوب برديه ، أو مر بروض شق عليه رداء رد وأثار به عجاج ند ، أو عارض حمـامة حيته بغنائها أو سلمت لقوة نزلت اليه من هوائها ، أو مسح بعص حنت اليه أو خطر بأسد تهالكت عليه ، كتاب منع جانبه ، وحمى حامله ، كلما خبط بطحاء كتبت بالكتائب ، أو ركب جرعاء رقمت بالأراقم ، كان لهذه مدية ، ولتلك رقية وكلما كحل مقلة شوساء خشعت ، أو لمس كفا خشـناه بخعت ، أو وقع الى رئيس وضعه على رأسه ، أو دفع الى ذى بأس أخدمه من بأسه ، أو لمحته شقراء حمحمت أو بصرت به بيضاء ترنمت، هو الحديقة تساق سوق الوسيقة ، أو اللطيمة فى ثنيها الغنيمة ، فثرت اليه قائما ، وأرقلت نحوه ساعيا ، وكان أول تحيتى له أن قبلتـه ، ووضعته على رأسى ، وحبست اليه أنفاسى،ثم فضحت ختمه واسترقت شمة ، ففتق على نسـيم العبير لخلخ به صـدور الحور ، وأهدى الى عبق الياسمين ، ذر عليه مسك دارين ، فأنعمت فى نشرطيه ، وضربت فى مدرج ليه فاذا ببنـات من البر مسلمة على ، وثغـور من الاكرام ضاحكة الى »(٣١) .

ولعل القـارىء لهذا الخطـاب يدرك أنه موجه الى المؤتمن رب نعمته ، وصاحب الفضل عليه ، لأنه حمله كثيرا من الكلمت التى حشدها للاعلان عن ثروته اللغوية ، وأصالته الفنية ثم هو اعلان عن اقتدار فى تصريف الكلام ، وتوجيه الخطاب الى الملوك والحكام ، وهو بين الحين والحين يسوق جانبا من شعره للاشعار بقدرته على النظم ، وغلبته على هذا الفن ، ثم هو بمدح المؤتمن أن عمه بخيره ، وحباه برفده ، فقد حملت الرسالة اليه كثيرا من الهدايـا والمنح عناها بقوله « فاذا ببنات البر مسلمة على ، وثغور من الاكرام ضاحكة الى » ثم يقول فى آخـر الرسالة ، فقلت : هكذا يكون الأنوك ، وبمثل هذا تنفح الملوك .

---

(٣٣) الذخيرة القسم الأول جـ ١ ص ٢٠٤ المصدر السابق .

وابن شهيد يعلم انه أسرف فى حشد الكلمات ، ورصف الألفاظ والعبارات ، وأن هذا الطول المسرف يصيب القارىء بلون من السأم فيقول « ولما طال الكلام — أيد الله ، المؤتمن — ولم يبلغ مملوكه الغاية التى اليها قصد ، ولا استوفى من الايراد ما اياه اعتمد خشى أن يصيبه ما يصيب التطويل من السآمة المخصوصة به ، والملال الموقوف عليه ، ففصله بنظم فيه عون على الدرس ، وتنبيه لشهوة النفس »(٣٢) ونفس المنهج الذى سلكه ابن شهيد فى رسالته السابقة سلكه — أيضا — فى هذه الرسالة التى رد بها على رسالة أتته من مولاه ، ورب نعمته المؤتمن ، واذا كان ابن شهيد فى الرسالة الأولى يطلب ويستجدى فانه فى هذه الرسالة يشكر ويسترضى ، وكلاهما منهج يحتاج من صاحبه حشد العبارات ، واجتلاب الكلمات التى من شأنها أن تستحوذ على لب القارىء ، وتجعله يجود بما عنده .

واذا كان ابن شهيد قد سلك فى الرسالتين السابقتين مسلك المتفنن فى حشد الكلمات الكثيرة ، ليدلل بها على قدرته اللغوية ، واقتداره على نسج الكلام ونسقه فاننا نراه أيضا فى بعض نثره يقتبس كثيرا من القرآن الكريم ، وكلمات السابقين يضمنها نثره ، ويوشى بها كلامه ، فهو يقول — مثلا — « لا نعمة للخالق على المخارق أجمل عاقبة ، وأحمد مغبة ، وأروق بهاء ، وأسبق رداء ، وأبعد مأثرة ، وأسير مكرمة من تقى يشعرها قلبه ، وأدب يزين به عقله ، ولسان مبين يفيضه عليه ، فيعرب به عن نفسه ، ويكشف عن حقيقة ذاته قال الله تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر ٩١) وقال « سلقوكم بألسنة حداد » (الأحزاب ١٩) . وقال : « أو من ينشأ

---

(٣٢) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٠٥ .

فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » • (الزخرف : ١٨) وقال على رضى الله عنه : قيمة كل امرىء ما يحسن • وقال « المرء مخبوء تحت لسانه » ولذلك كانت الملوك تعدل بينيها عن التنعم الى شظف العيش ، وتدنى محالهم من البادية ، وتبوئهم منازل الفصاحة ، لتحتد افئدتهم وتمتد ألسنتهم ، وينسابوا فى لصاب الدهاء ، ومزاحف النكراء ، فيجيدوا الحز ويطبقوا المفصل ، ويسوسوا النوب ، ويكتبوا الخصوم ، ويخرجوا من الغماء ويمضوا قدما فى الشنعاء كما قال عمرو لمعاوية :

فان تعطنى مصرا فأربح بصفقة أخذت بها شيخا يضر وينفع

وان امرءا يقابل ابن هند بهذا وهو لفضفاض قميص الأدب ، طويل نجاد المعرفة موقوف على ذروة الفضل »(٣٤) •

فالقارىء يبين من خلال هذه الكلمات التى بحث فيها ابن شهيد على تعلم الأدب لأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه أن ابن شهيد قد حشد لنا كثيرا من النصوص التى تؤيد رأيه ، وتقوى وجهة نظره فالانسان يحمد لتحليه بصفتين التقى والأدب ، ولأمر ما كان للخلفاء يبعثون أبناءهم الى المؤدبين ، فان ساسوا سادوا •

والقارىء يتبين من خلال هذه الكلمات أن اسلوب ابن شهيد هنا غير أسلوبه فى الرسالتين السابقتين ، فقد أطلق لسجينه العنان فلم يقيدها بذلك السجع المقيت ، ولم يقسرها على هذه المحسنات البديعية التى تكبل الأسلوب بأغلال التكلف ، وتسمه بميسم التصنع •

ولعلك تعجب من استرساله — أيضا — عندما تقرأ قوله فى أخريات حياته يعترف بما اقترفه من آثام ، وما ارتكبه من ذنوب ذهبت وبقى وزرها فهو يقول « أجل ما بيننا ارتضاع الكاس وشم الآس ، والجرى فى حانات الصبا ، والصيد بالسكر فى الربى ، وان كانت هنات مخلقة ،

(٣٤،٣٣) الذخيرة ق١ جـ ١ ص ٢٢٦ المصدر السابق •

وأوقات مريبة ، ذهبت وبقى وزرها ، وظعنت وأقام شرها فان المرجوع للعليم الحكيم »(٣٥) .

لقد طوفت بك ايها القارىء فى نثر ابن شهيد الذى يمثل الجانب الأول منه جانب الرسائل والكلمات التى كتبها فى مناسبات مختلفة . وما ذلك الا لأبين لك منهج ابن شهيد فى نثره ، والذى سنقف عنده فى نهاية البحث مسلطين عليه قوانين النقد ، ولن يستطيع القارىء متابعة ذلك الا اذا تصور جانبا منه ، حتى يمكنه اصدار الحكم ، أو قبول ما يقال .

ولم يكتف ابن شهيد بالجانب الأول من نثره بكتابة الرسائل والرد عليها ، أو بكتابة بعض الحكم والنصائح ، وانما جعل من نثره وسيلة تعليمية ، أو منهجا تلقينيا ، أو حمله بعض آرائه فى فنون الأدب التى اكتملت فى رسالة التوابع والزوابع ، فهو يقول فى فصل نقله ابن بسام عنه — موضحا فيه أن اصابة البيان لا تأتى الا عن طريق الطبع السليم ، فالطبع عنده أهم من التعلم « واصابة البيان لا يقوم بها الطبع مع وزنة من هذين : النحو والغريب ، ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه فى أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا ، يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها وأرق لبساتها ، ومن كان جسمه مستوليا على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى الكمال ، وحسن الرونق والنظام ، فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائقة من الكلام تملأ القلوب ، وتشعف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها أسا لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير حسن كقول امرىء القيس :

---

(٣٥) الذخيرة : ١ جـ ١ ص ٢٢٧ المصدر السابق .

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فان هذه الديباجة اذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، وكقول أبى نواس :

طرحتم من الترحال ذكرا فغمنا فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا

ثم قال فيهـا :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد
هـواك لعـل الفضـل يجمع بيننـا

فهذا من الكلام الغث ، واللفظ الرث الذى لورامه حمار الكساح لأدركـه ، ولكن له من التعلـق بالنفس والاسـتيلاء عـلى القلب ما ترى »(٣٦) .

ان لنا ــ وقفة ــ مع ابن شـهيد حـول هذه الآراء التى ضمتها نثـره ، فهو يدعى ان اصـابة البيان لا تكون بحفظ كثير الغـريب ، واستيفاء مسائل النحو ، ثم يضع بعض الاسس النفسية ، لأن الاديب المطبوع هو الذى تكون نفسه مسئولية على جسـمه ، ثم يتحـدث عن الجمـال والجلال فى الأدب عندما يذكر بيت امرىء القيس ، وأبيـات أبى نواس ، ثم يتحدث عن الجاحظ حديث فيه تهجم عليه ، وخاصـة وعندما رأى الجاحظ يعلى من شأن معلمى الأدب فيقول فى كتابه البيان والتبيين « اننا اذا اكترينا من يعلم صبياننا النحـو والغريب قنع ما بعشرين درهما فى رأس كل شهر ، ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما قنع بألف درهم . فيرمى الجاحظ بأنه رفع من شأن معلمى البيان ، لأنه ألف كتاب البيان والتبيين ، ثم يرميه بأنه بخل أن يعلم النـاس جانبا من علم البيان ، واكتفى فى كتابه بذكر وسائل البيان وهى المادة الأولية

---

(٣٦) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ المصدر السابق .

التى يجب على طالب البيان أن يحفظها »،ثم يفتخر ابن شهيد بأنه سلك هذا الجانب ، وعلم التلاميذ كيف يكونون أدباء يقول ابن شهيد : « وقد كنا أطعمنا من هذا الطعام بعض التلاميذ فاستطابه وعلم مقداره ، ولكن البطالة على الفتيان غالبة والسآمة عليهم مستولية » بل انه يذكر لنا درسا قام به ليعلم بعض أهل قرطبة الأدب وفن الشعر ، فيقول « جلس الى يوما يوسف بن اسحاق الاسرائيلى ، وكان أفهم تلميذ مربى ، وأنا أوصى رجلا عزيزا على من أهل قرطبة ، وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلمات ، فاذا حادر النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، واذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال لى : اى والله »(٣٧) .

ويستمر ابن شهيد يعلم تلميذه أصول علم البيان كتعليمه قوانين الفصاحة ويعقد مقارنة بين اختيار مليح اللفظ ، ورشيق الكلام وبين اختيار مليح النحو وفصيح الغريب ، والهرب عن قبيحه ، ثم يضرب له مثلا بأبيات من شعر بشار ، ويطبق له المثل على بعض ألفاظها وعباراتها ، ثم يذكر لنا ان القرطبى والاسرائيلى أتياه بشعر فأجاد الاسرائيلى ، وأخفق القرطبى لكنه — أى القرطبى — فهم مواطن الاجادة عند الاسرائيلى فكانت هذه ميزة فيه جعلته بعد ذلك يجيد قول الشعر ، ويبرز فيه .

وهكذا نرى ابن شهيد يتيه عجبا بهذا المنهج الذى اتبعه فى تعليم الناشئة أصول علم البيان ، وقول الشعر ، ولعل القارىء لهذا الموضوع يدرك مدى الاضطراب الذى وقع فيه ابن شهيد ، بل يدرك أن قول المترجمين له ، الذين أعلنوا انه لم يختلف الى معلم ، ولم يجدوا لديه

---

(٣٧) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ المصدر السابق .

كثيرا من الكتب والمراجع ، بل انه يجعلنا نقف أيضا عند حديثه عن الطبع عندما قال : « واصابة البيان لا يقوم بهـا حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، وانما يقوم بها الطبع »(٣٨) .

ويتحدث فى فصل آخر من نثره عن أهل صناعة الكلام، ويقسمهم أقساما ثلاثة : « فمنهم الذى ينظم الأوصاف ، ويخترع المعـانى ، ويحرز جيد اللفظ الا انه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحته التأليف ، حتى انه ربما قصر فى الوصف ، وأساء الوضع »(٣٩) .

« ومنهم الكارع فى بحر الغزارة القادح بشعاع البراعة الذى يمر مر السيل فى اندفاعه والشؤبوب فى انصبابه » .

« ومنهم من يتجافى الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك فى أنحاء من الصـنعة ، وجل ما عنده تلفيق وحيلة ، وبذلك يصاحب الأيام ويجارى أبناء الزمان »(٤٠) .

وهو بهذا يجعل أهل الزمان طبقات ، وهذا جيد منه لكنه قد اتخذ من ذلك منطلقا الى صب جام غضبه على المعلمين الذين ناصبهم العداء فوصفهم بأنهم لم يحصلوا الا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة ، لكن لهم قلوبا كقلوب البعـران ، ويرجعون الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة لا منفذ لها فى شعاع الرقة ، ولا مدب لها فى أنـوار البيـان »(٤١) .

---

(٣٨) الذخيرة جـ ١ ق ١ ص ٢٣١ المرجع السبق .

(٣٩) الذخيرة جـ ١ ق ١ ص ٢٣٨ المرجع السابق .

(٤٠) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٩ المصدر السابق .

(٤١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٩ المصدر السابق .

ثم انطلق بعد ذلك الى ذم الـوزير أبى القاسم الافليلى الذى سيأتى له حديث فى رسالة التوابع والزوابع ، فبعد أن قال عن المعلمين الذين يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة ، وتقصيرهم بالآلة عن طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم الباعثة لرفيق الـدم فى الشريانات الى القلب ، وزيادة غلظ أعصـاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى ... الى آخر هذه العاهات التى ذكرها لأولئك المعلمين . والتى قعدت بهم — فى نظره — عن الارتقاء الى مصاف الكتاب العظام . فهو يقول « وليس العجب فى هذه العصابة الا من أبى القاسم فانه زاد عليهم فى الصناعة ، وبزهم بوفور البضاعة دخل الشعراء فأخذ لباقتهم ، وصار فى جملة الكتاب فاستعار صلفهم ، ورشاقتهم .. الى آخر تلك الصفات التى وصف بها الوزير أبى القاسم الافليلى ، فهو — فى نظره — أنانى لا يريد لغيره أن يرقى الى سلم السلاطين ، وكل الكتاب الذين كتبوا للسلاطين ، وكل الشـعراء الذين قالوا فيهم شعرا رويت أشعارهم ، ودونت رسائلهم الا أبو القـاسم وحده ، وذلك لبخله برسائله ، وشحه بشعره ، حتى لا ينتفع به أحد من صبيان المتعلمين .

ومن عجب اننى عند قراءتى لديوان ابن شـهيد عثرت على بيتين يمدح بهما هذا الـوزير ، وقد كتب محقق الديوان عنـوانا لهما هو « مدح الوزير أبى القاسم الافليلى » قال :

غير أنى مع الوزير أبى القاسم
حـزب محض من الأحزاب
التقى النقى كهـلا وطفـلا
فارس الجيش راهب المحراب(٤٢)

---

(٤٢) ديوان ابن شهيد الأندلسى جمعه وحققه يعقوب زكى . ط دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة .

فهل حدثت هذه الجفوة بينهما بعد أن قال فيه هذا الشعر ؟ أم أن ابن شهيد لم يبن آراءه على حجج قاطعة وبراهين ساطعة فاذا به يضطرب فى شخصية كشخصية الافليلى فيمدحه تارة بالتقى والورع ، والمثابرة على العلوم ويهجوه أخرى بأنه لا يجيد البيان ، ولا يستطيع فهم مرامى الكلام ؟

رسالة التوابع والزوابع :

ذاك هو الجانب الأول من نثر ابن شهيد أما الجانب الثانى فقد تمثل فى تلك الرسالة التى سماها « التوابع والزوابع » والتى وجهها الى أبى بكر يحيى بن حزم شيخ من شيوخ الأدب ، وهو غير الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم .

غرض الرسالة :

ان الغرض العام لهذه الرسالة يتمثل فى تلك الآراء التى تقدمت فى نثر ابن شهيد والتى اراد صوغها فى رسالة خاصة يكون مسرحها عالم الجن ، والتى اراد بها الرد على خصومه وحسّاده فقد كان كثير الحساد والخصوم ، ولقى منهم عنتا . فانبرى لهم يدافعهم . ويناضلهم ، وينتقص أدبهم . ويبسط آراءه فى المفاخرة والمناظرة والفن والجمال . فرسالة التوابع والزوابع ، لا تعدو هذا الغرض الذى يرمى اليه وهو الطعن على أنداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء ، وأهل السياسة والقلم ، ثم المنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نقاده ، ثم اظهار محاسنه فى المتقدمين والمتأخرين ، فقد عرض لمغتابيه عند المستعين منددا بضعفهم وعجزهم عن لحاقه وألح بالازراء على أبى القاسم الافليلى فنفس عليه بعلمه ومعرفته ، ودعاه الى مبارزته بالوصف شعرا ونثرا ، وسخر بأدباء بلده ، ونسب الغباوة الى أهل زمانه(٤٣) ، وقد

---

(٤٣) موسوعة تراث الانسانية جـ ٧ ص ٣٠١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

اختار ابن شهيد لرسالته اسم التوابع والزوابع ، لأنه جعل مسرحها عالم الجن ، وجعل أبطالها جميعا من الشياطين ، وليس بينهم من الانس سواه ومعنى ذلك ــ كما تقدم فى صدر البحث ــ أن الخيال أوحى الى ابن شهيد أن يرحل الى عالم الجن ، ليختصم اليهم ، ويكونوا الفيصل بينه وبين معاصريه « فاتصل بشياطين الشعراء ، وناقشهم وأنشدهم وأنشدوه ، وعرض من خلال ذلك لآرائه فى الأدب واللغة ، وذكر كثيرا من شعره ونثره ، كما نقد خصومه ، ودافع عن فنه ، وانتزع من ملهمى الشعراء والكتاب الأقدمين شهادات بتفوقه وعلو كعبه فى الأدب كل هذا مع كثير من بث الفكاهات ، ونثر الطرائف ، وايراد الدعابات »(٤٤) .

ولعلنا نستطيع أن نتبين موضوع الرسالة من كلام ابن شهيد نفسه ، فقد بنى الرسالة على مقدمة وموضوع :

أما المقدمة : فقد عرض فيها لسبب تأليف هذه الرسالة ، وذلك على ما يبدو أن أبا بكر بن حزم الذى ذكره فى أول الرسالة بأدبه الجم ، وشعره الجيد فأبدى له أن هذا الكلام لا يستطيعه سائر البشر ، ولا يقدر عليه عامة الخلق فمن أين أتاه هذا الكلام ؟ فأجابه ابن شهيد بقوله : « لله أبا بكر ظن رميته فأصميت ، وحدس أملته فما أشوبت ، أبديت بهما وجه الجلية ، وكشفت عن غرة الحقيقة حين لمحت صاحبك الذى تكسبته ، ورأيته قد أخذ بأطرف السماء فألف بين قمريها ، ونظم فرقد يها »(٤٥) .

ثم يعترف ابن شهيد انه وهو فى أول عهده بالكتابة كان يحن الى الأدباء ويصبو الى تأليف الكدم « فاتبعث الدواوين ، وجلست الى الأسانيد ، فنبض لى عرق الفهم ، ودر لى شريان العلم بمواد روحانية،

---

(٤٤) د. أحمد هيكل الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٣٧٧ ط دار المعارف .

(٤٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٦ المصدر السابق .

وقليل الالتماح من النظر يزيدنى ، ويسير المطالعة من الكتب يفيدنى »(٤٦) .

ثم يذكر لصاحبه أبى بكر أنه مات له حبيب كان يهواه ، فجزع عليه ، وأخذ فى رثائه يوما بمكان يقال له الحائر فقال :

تولى الحمام بظبى الخدور
وفاز الدوى بالغزال الغرير

وعندما انتهى الى قوله :

وكنت مللتك لا عن قلى
ولا عن فساد جرى فى ضميرى

ارتج عليه وأفحم ، فاذا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه قد اتكأ على رمحه ، وصاح به « أعجزا يا فتى الانس ؟ قلت لا وأبيك للكلام أحيان وهذا شأن الانسان ؟ فقال لى : قل بعده :

كمثل ملال الغنى للنعيم اذا دام فيه وحال السرور

فاثبت اجازته ، وقلت له : بأبى أنت من أنت ؟ قال : أنا زهير بن نمير من أشجع الجن ، فقلت وما الذى حداك الى التصور لى ؟ فقال : هوى فيك ورغبة فى اصطفائك »(٤٧) .

وهكذا تعقد الآصرة بينهما ، ويصبحان صديقين ، ثم يلقنه الجنى أبياتا أن هو أراده يقولها فيأتيه الجنى .

وفى يوم من الأيام تذاكر هو والجنى الخطباء والشعراء ، وما كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقال له : هل من حيلة فى لقاء من اتفق

---

(٤٦) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٦ المصدر السابق .
(٤٧) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٧ المصدر السابق .

منهم ؟ قال : حتى أستأذن شيخنا وطارعنى ، ثم انصرف كلمح البصر ، وقد أذن له « فقال حل على متنن الجواد ، فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوفاندو (٤٨) ، حتى التمحت أرضا لا كأرضنا ، وشارفت جوا لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال لى : حللت أرض الجن أبا عامر »(٤٩) •

وهكذا تأتى المقدمة كاشفة عن تلك العلاقة التى نشأت بين ابن شهيد وبين زهير بن نمير الجنى الذى أحب ابن شهيد وأعجب بفنه ، والذى دعاه الى رحلة فى عالم الجن ، لقد حور ابن شهيد جنيه بأنه أشجع الجن ، وانه يجيد الشعر ، ويدرك مرامى الكلام ، وهو بهذا يضع بطلا لرسالته على غرار أبطال المقامات التى ألفها بديع الزمان وقد أمكن لابن شهيد أن يدير الحوار بينه وبين زهير بن نمير الذى رافقه فى رحلته الى عالم الجن ، ليلتقى بتابع من غير من الشعراء ، بل وتابع من غير من الكتاب ، فاذا كان العرب قد جعلوا لكل شاعر شيطانا فانه جر هذه الظاهرة على الكتاب أيضا ، لأنه شاعر وكاتب ، ولابد أن يعارض الشعراء والكتاب ، ويظهر التفوق عليهم ، ولعل هذا هو موضوع الرسالة ، فموضوع الرسلة — اذن — يتمثل فى هذه الرحلة التى قام بها والتى التقى فيها بشياطين الشعراء والكتاب ، وحاورهم وداورهم ، ثم تفوق عليهم وغلبهم •

لقد وقر فى قلوب مؤرخى الأدب ، والمشتغلين بالدراسات النقدية أن امرىء القيس أمير الشعراء وسابقهم قيد الأوابد ، وبكى واستبكى ، ووقف واستوقف ، وأتى بمعان اخترعها وقلدته فيها الشعراء ، ان هذا الأمر دفع ابن شهيد للبدء به وطلب رؤية تابعة فقال زهير بن نمير « يا عتيبة بن نوفل ، بسقط اللوى فحومل ، ويوم دارة جلجل الا ما

---

(٤٨) الدو : المكان الخالى : يقال ما فى الدار دوى أى أحد •

(٤٩) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٨ المصدر السابق •

عرضت علينا وجهك ، وأنشـــدتنا من شـــعرك ، وسمعت من الانس ، وعرفتنا كيف اجـــازتك له ، فظهر لنا فـــارس على فرس شقراء كأنها تلتهب ، فقال : حياك الله يا زهير ، وحيا صاحبك • أهذا فتاهم ؟ قلت : هو هذا ، وأى جمرة يا عتيبة : فقال لى : أنشد ، فقلت : السيد أولى بالانشاد ، فتطامح طرفه واهتز عطفه ، وقبض عنان الشقراء ، وضربها بالسوط ، فسمت تحضر طرلا عنـــا ، وكر فاستقبلنا بالصعدة هازا ، ثم ركزها وجعل ينشد :

سمالك شوق بعدما كان أقصرا

حتى أكملها . ثم قال لى أنشد ، فهممت بالحيـــة . ثم اشـــتدت قوى نفسى ، وأنشدت :

شجته معان من سليمى وأدؤر

حتى انتهيت فيها الى قولى :

ومن قبة لا يعرف الطرف رأسها
تزل بهـــا ريح الصـــبا فتحدر
تكلفتها والليل قد جـــاش بحره
وقـــد جعلت أمواجـــــه تتكسر
ومـــن تحت حضـــنى أبيض ذو
سفاسق وفى الكف من عساله الحط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا
مقيلان من حد الفتى حين يعثر
فذا جدول فى الغمد تسقى به المنى
وذا غصن فى الكف يجنى فيثمر

يقول « فلما انتهيت تأملنى عتيبة ، ثم قل : اذهب فقد أجزتك ، وغاب عنا »(٥٠)

لقد عمدت الى نقل هذه المقابلة التى تمت بين ابن شهيد ، وبين تابع امرىء القيس كى يتبين القارىء ما قام به ابن شهيد من فخر بنفسه ، ودل على الجميع ، حتى انه ينطق زهير بن نمير ــ عندما سأله تابع امرىء القيس ــ أهذا فتاهم ؟ قال : هو هذا وأى جمرة يا عتيبة وهذه العبارة يتضح منها اعجاب ابن شهيد بنفسه ، وفخـــره بشعره ، وعندما أنشد شعره قال ابن شهيد : تأملنى عتيبة « وهذا يعنى شدة الاعجاب به ، وكأنه يريد أن يقول : لولا ما أوتيه تابع امرىء القيس من عظمة الملـــوك ، وكبرياء الأمراء لهتف بى اعجـــابا ، ولكنه اكتفى بقوله « قد أجزتك » .

ويلتقى ابن شهيد بصاحب طرفة بن العبد ، ويسميه « عنتر بن العجلان » ، والذى يستنشده ابن شهيد فينشده قول طرفة :

لسعدى بحزان الشريف طلول

حتى يكملها ، ثم يستنشد ابن شهيد فينشده قوله :

أمن رسم دار بالعقيق طلول (٥١)

وعندهم يستمر ابن شهيد فى انشاد القصيدة حتى نهايتها يصيح

---

(٥٠) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٩ المصدر السابق ، والقصـــيدة فى الديوان ص ١٠٧ ولم يذكر محقق الديوان المصراع الثانى ، وعلق عليه بقوله : « انه ناقص فى اليتيمة ».

(٥١) القصيدة كاملة بديوان ابن شهيد ص ١٤٠ المصدر السابق وقد أوردها أيضا صاحب الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥١ المصدر السابق .

به « عنتر » لله أنت اذهب فانك مجـــاز ، وهى عبارة تنم عن اعجاب بشـــعر ابن شهيد •

ويكتفى ابن شهيد برؤية تابع امرىء القيس وطرفة من الجاهليين، ويريد الذهاب الى تابع أبى تمام من المحدثين فيستوقفهما تابع قيس ابن الخطيم وهو ينشد قوله :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

وبعد محاورة واعتذار منهما يطلب صاحب قيس من ابن شـــهيد أن ينشده ، وان هو أخفق لينزلن به أذى ، وهو تقديم يوحى بالاعتزاز بالنفس فينشده ابن شهيد قوله :

منازلهم تبكى اليك عفاءها(٥٢)

وفيها يقول ابن شهيد :

خليلى عـــوجا بارك الله فيكمـــا
بدارتهـــا الأولى نحيى فنـــاءها
فلم أر أسرابا كأسرابها الدمى
ولا ذئب مثلى قد رعى ثم شاءها

فلما انتهى من انشاده تبسم وقال له لنعم مـــا تخلصت • اذهب فقد أجزتك •

ويستمران فى المسير حتى يصلا الى المكان الذى اتخذه تابع أبى تمام لنفسه مقاما ، فيبدو لهما ، ويحيى ابن شهيد وصاحبه ، ويسأله ابن شـــهيد عن سبب سكناه هذه العين ، ويجيبه بقوله « حيـــائى من التحسن باسم الشعر وأنا لا أحسنه • وينشده قوله :

---

(٥٢) القصيدة بالديوان ص ٨٢ والمصراع الثانى من البيت قوله « ســـقتها الثريا بالقرى نحاءها »

أبكيت اذ ظعن الفريق فراقها(٥٣)

حتى ينتهى فيها الى قوله :

انى امــرؤ لعب الزمــان بهمتى
وسقيت من كأس الخطوب دهاقها
وكبوت طرفا فى العلا فاستضحكت
حمــر الأنام فما تريم نهــاقها
واذا ارتمت نحــو المنى لأنالها
وقف الزمان لهــا هناك فعاقها
واذا أبــو يحيى تأخر نفســه
فمتى أؤمل فى الزمان لحاقهــا

ثم يطلب منه تــابع أبى تمام أن ينشده من رثائه فينشده . ثم يستزيده ، ثم يقول له الجنى « ان كنت ولابد قائلا فاذا دعتك نفسك الى القول ولا تكد قريحتك ، فاذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقل ، ونقح بعد ذلك ، وتذكر قوله :

وجشمنى خوف ابن عفان ردها
فثقفتهــا حــولا كريتا ومربعــا
وقد كان فى نفسى عليها زيادة
فلم أر الا أن أطيع وأسمعا(٥٤)

ثم يقول له الجنى « وما أنت الا محسن على اســاءة زمانك » يقول ابن شهيد « فقبلت على رأسه وغاص فى العين » .

---

(٥٣) القصيدة كاملة فى الديوان ص ١٣٦ منقولة عن الذخيرة التى لم تذكر المصراع الثانى من البيت الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٥٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥٦ . والبيتان لسويد بن كراع انظر الشعر والشعراء والأغانى والبيان والتبيين .

وينطلقان لرؤية صاحب أبى نواس ، وفى الطريق يعرضان لصاحب البحترى ، ويستنشده بعد محاورة بينهما فينشد :

هذه دار زينب والرباب (٥٥)

حتى يكملها يقول ابن شهيد : « فكأنما غشى وجـــه أبى الطبع « صاحب البحترى » قطعة من الليل ، وكر راجعا الى ناورده دون أن يسلم ، فصاح به زهير أأجزته ؟ قال : أجزته لا بورك فيك من زائر ، ولا فى صاحبك أبى عمر(٥٦) .

وهى عبارة تنم عن افحام ابن شهيد لتابع البحترى .

ويسيران معا حتى ينتهيا الى أصل جبل دير حنة يقول ابن شهيد « فشق سمعى قرع النواقيس ، فصحت : من منازل أبى نواس ورب الكعبة العلياء ، وسرنا بختاب أديارا وكنائس ، وحانات ، حتى انتهينا الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصـــوك نعرافحه ، فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على دير حنة ! فقلت لزهير أو هل صرنا بذات الأكيراح ؟ قال : نعم ، وأقبلت نحونا الرهابين مشددة بالزنانير قد قبضت على العككيين بيض الحواجب واللحى ، اذا نظـــروا الى المـــرء استحيا ، مكتربن للتسبيح عليهم هدى المسيح ، فقالوا : أهـــلا بك يا زهير من زائر ، وبصاحبك أبى عامر . ما يعنيك ؟ قال : حسين الادنان . قالوا : انه لغى شرب الخمرة منذ أيام عشرة ، ما أراكما منتفعين به »(٥٧) .

وذهب بهم الى بيت يصـــفه ابن شهيد وصفا دقيقـــا « اصطفت دنانة ، وعكفت غزلانه ... الخ » وهناك يجدان صاحب أبى نواس

---

(٥٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥٧ والقصيدة منقولة عن اليتيمة يقول محقق الديوان ان المصراع الثانى ناقص بها الديوان ص ٨٥ .

(٥٦) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥٨ المصدر السابق .

(٥٧) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥٩ المصدر السابق .

قد أتت عليه الخمرة ، فلم تبق فيه شيئا للحضرة ، ولكن ابن شهيد ينشده من قصائده فى الخمر ، فيفيق ، ويطلب منه مزيدا من شعره فى الرثاء وفى المجون ، ويجيزه وينصرفان الى تابع المتنبى ، والذى قال بعد أن سمع منه شعره « ان امتد به طلق العمر فلابد أن ينغث بدرر »(٥٨) .

ويكتفى ابن شهيد بمقابلة توابع هؤلاء الشعراء ولعله أراد أن يخبرنا أن هؤلاء يشكلون علامات بارزة فى سير الحركة الشعرية حتى القرن الرابع الهجرى الذى كان ابن شهيد قد تجاوزه بقليل ساعة كتابة الرسالة .

ومن يقف على أسماء من قابلهم يدرك ذلك ، فقد التقى بتابع امرىء القيس ، وهو الذى أجاد الوصف ، وأحسن التشبيه فهو زعيم الشعر الجاهلى دون منازع ، والتفوق عليه من قبل ابن شهيد يعنى شهادة له بزعامة الشعر الأندلسى فى عصره .

ولا يكتفى ابن شهيد بشهادة تابع امرىء القيس من الجاهليين وانما يأخذ شهادة صاحب طرفة بن العبد الذى كان من أدق شعراء العصر الجاهلى استخداما للغة ، وقدرة على التصرف فيها ، لقد كان يفهم أسرار اللغة وهو لما يزل طفلا لم يتجاوز العشر ، فقد اعترض على المتلمس عندما قال :

وقد أتناس الهم عند احتضاره
بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال : استنوق الجمل وهى عبارة تنم عن قدرة لغوية تميز بين الناقة والجمل . ألم يصف الناقة فى معلقته وصفا لا يرقى اليه واصف ؟ انه الشاعر الذى فاق أقرانه ولو أنسىء له فى عمره لفاق الشعر طرا .

---

(٥٨) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٦٧ المصدر السابق .

ثم يعطينا مشـــهدا آخر تمثل فى لقـــائه عرضا بأبى الخطار تابع قيس(٥٩) بن الخطيم الشاعر اليثربى الذى أدرك الاســـلام ، وكأن ابن شـــهيد أراد منـــا أن نتصور أن الاســـلام قد تأثر به الشـــعراء المخضرمون من أمثال حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ولم يتأثر به قيس بن الخطيم الشـــاعر الماجن الذى قيل انه كان متزوجا باحدى المسلمات فكان يصرفها بعبثه ومجونه عن الصـــلاة ، حتى شكاه بعض الأنصار الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل الهجرة ، وفى بيعة العقبة لقيه رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطلب منه أن لا يؤذى امرأته ففعل ، وهو مشهد أيضا له فعـــاليته المتمثلة فى عبث ابن شهيد ولهوه فكأنهما رفيقا كاس ، وقرينا عبث ومجون .

وينطلق ابن شهيد لرؤية قرين أبى تمام وأبى نواس ، وهو فى طريقه يلتقى بقرين البحترى ، ثم قرين المتنبى ، وفى كل لقاء يعرض شعره ويستنطق جنه بتأييده واجازته وهو بهذا يعطى لنفسه فضـــلا على شعراء عصره .

وينتقل ابن شهيد من الشعراء الى الخطباء ، فقد قضى وطره من الشعراء ، وعليه الآن أن يعرف موقفه من الخطباء ، فهو شاعر ناثر ، وهو ــ أيضا ــ يعطينا حكما مسبقا بأفضلية الشعراء على الخطباء ، فقد جمعت له خطباء الجن بمكان يسمى مرج دهمان ، فيسأل ابن شهيد

---

(٥٩) قيس بن الخطيم : شاعر من شعراء الأوس ترجم له صاحب طبقات فحول الشعراء الســـفر الأول ص ٢٢٨ وقال عنه كان قيس مقيما على شركه ، وأسلمت امرأته وكان يقال لهـــا حواء ، فكان يصـــدها عن الاسلام ، ويعبث بها فلما علم بذلك رســـول الله صلى الله عليه وسلم . وهو بمكة قبل الهجرة ، أتى قيسا فى مضربه فى موسم الحج وكلمه فى ذلك فوعد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن لا يعود الى ذلك .

لم ذاك ؟ فيقول له تابعه للفرق بين كلامين اختلف فيه فتيان الجن ، وهو حكم للشعر على النثر ، وهى قضية تحتاج الى تمحيص وبيان .

والذى جعل الشعر فى نظره أفضل من النثر أن توابع الشعراء قد عنى نفسه فى الوصول اليهم وأجهد عقله فى التعرف عليهم ، ولم يلتق بأحدهم الا بعد حث انخطا واجهاد الرواحل ، أما الخطباء والأدباء فقد كانوا فى استقباله ، حيث جمعوا له ، وحشدوا فى مكان جرت فيه المحاورة ، وتمت فيه المناظرة .

يصف لنا ابن شهيد هذا المكان بأنه ناد عظيم قد جمع كل زعيم . وهى عبارة توحى بذلك الجمع الهائل الذى كان فى استقبال ابن شهيد وتابعته . فسلم عليهم تابعة ابن شهيد فردوا السلام ، وأشاروا بالنزول . وعندما اتسع لهم المجلس ، وأصبحا مركز هالته راح ابن شهيد منظر شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة ، قد اتجهت اليه أنظار الحاضرين ، وشخصت اليه أبصار المتلحقين يقول ابن شهيد : « فقلت سرا لزهير من ذاك ؟ قال عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عيينة . قلت : بأبى هو ليس رغبتى سواه ، وغير صاحب عبد الحميد قال لى : انه ذلك الشيخ الذى الى جنبه ، وعرفه صغوى اليه ، وقولى فيه ، فاستدنانى وأخذ فى الكلام معى فصمت أهل المجلس ، فقال : انك لخطيب ، وحائك للكلام مجيد لولا انك مغرى بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر »(٦٠) .

هذا الكلام قد أثار ابن شهيد لأنه هجوم عليه ، وعلى طريقته فى الكتابة ، ونهجه فى البيان ، فقال ابن شهيد — قرعك — بالله — بقارعته ، وجاءك بمماثلته (٦١) .

وينتصر ابن شهيد لمنهجيه فى الكتابة ، ولطريقته فى النثر بقوله

---

(٦٠) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٦٨ المصدر السابق .

(٦١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٦٨ المصدر السابق .

« ليس هذا ــ أعزك الله ــ منى جهلا بأمر السجع ، وما فى المماثلة والمقابلة من فضل ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام [ودهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحرا ان أحركهم بالازدواج ، ولو فرشت للكلام] فيهم طولقا(٦٢) ، وتحركت لهم حركة مشولم(٦٣) لكن أرفع لى عندهم ، وأولج فى نفوسهم » فيجيبه تابعة الجاحظ بقوله « أهذا على تلك المناظر ، وكبر تلك المحابر ، وكمال تلك الطيالس ؟ يقول ابن شهيد : فقلت نعم : انها لحاء الشجر ، وليس ثم ثمر ولا عبق ، قال لى « صدقت انى أراك قد ما ثلت معى ، كما سمعت ، قال : فكيف كلامهم بينهم ؟ قلت ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدى اليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، انما لكنه أعجمية يؤدون بها المعانى تأدية المجوس والنبط ، فصاح : انا لله • ذهبت العرب وكلامهم ، أمهم يا هذا بسجع الكهان ، فعسى أن ينفعك عندهم [ويطير لك ذكرا فيهم ، وما أراك مع ذلك الا تقبل الوطأة عليهم كريه المجىء اليهم](٦٤) •

وتنتقل المحاورة من تابعة الجاحظ الى تابعة عبد الحميد ، وتطول بينهما ، حتى يقول له تابعة عبد الحميد أهكذا أنت بأطيلس تركب لكل نهجه ، وتج اليه عجه ، ثم يسوق له ابن شهيد نكته من نكاته ، فتبدو الألفة بينهم ، وتظهر المودة له منهما ، فيسالانه أن يقرأ عليهما من رسائله ، وهو أمر يدعو الى الاعجاب به والشهادة له ، فقد قالا له : « ان لسجعك موضعا من القلب ، ومكانا من النفس ، ولقد أعرته من طبعك وحلاوة لفظك ، وملاحة سويقك ما أزال أفنه ، ورفع غبنه»(٦٥) •

---

(٦٢) حاول محقق الذخيرة أن يشرح هذه الكلمة فأرجعها الى ما يقرن بالشعوذة أو بالدعوة الى بيع العقاقير أو التكلم بطلاقة •

(٦٣) المشولم : هو الراقى الذى يستخدم كلمة « شولم ــ شولم» فحركة مشولم هى حركة الراقى ، الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٦٨ •

(٦٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٦٩ المصدر السابق •

(٦٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٧٢ المصدر السابق •

والقارىء لهذه الكلمات التى أجراها ابن شهيد على لسان تابعة الجاحظ وعبد الحميد يتبين من خلالها الاضطراب فى الحكم — فضلا عن حديث ابن شهيد فى رسائله عن الجاحظ والهجوم عليه فبينما يقول تابعة الجاحظ : « انك مغرى بالسجع فكلامك نظم لا نثر » اذا به يقول فى نهاية كلامه « ان لسجعك موضعا من القلب ، ومكانا من النفس ، ولقد أعرته من طبعك وحلاوة لفظك ... الخ » وهو كلام لا يتفق وما قاله فى أول حكمه ، فابن شهيد يحاول بذلك أن يجعل القارىء يقف على أن كلامه له منزلة فى نفوس النقاد ، والمشتغلين بالقضايا الأدبية ، وهو كلام يحتاج الى مزيد من التمحيص والتدقيق .

ولم يكتف ابن شهيد بشهادة الجاحظ وعبد الحميد ، بل حاول استعداءهما على معاصريه ووغر صدرهما على مناوئيه ، فيجرى على لسانهما هذا الكلام « وقد بلغنا انك لا تجارى فى أبناء جنسك ، ولا يمل من الطعن عليك ، والاعتراض لك ، فمن أشدهم عليك ؟ يقول ابن شهيد : « قلت : جاران : دارهما صقب ، وثالث نايته نوب ، فامتطى ظهر المنوى ، وألقت به فى سر قسطة العصا ، فقالا : الى أبى محمد تشير ، وأبى القاسم ، وأبى بكر . قلت :أجل . قالا : فأين بلغت فيهم ؟ قلت : اما أبو محمد فانتضى على لسانه عند المستعين ، وساعدته زراقة استهواها من الحاسدين »(٦٦) .

« وأما أبو بكر فأقصر واقتصر على قوله : « له تابعة تؤيده »، وأما أبو القاسم الافليلى فمكانه من نفسى مكين . وحبه بفؤادى دخيل، على انه حامل على ، ومنتسب الى » .

بهذا الكلام عرض ابن شهيد وجهة نظره فى معارضيه ، ورأيه فى مناوئيه وهو بهذا يحاول استدرار عطف تابعة الجاحظ وعبد الحميد ، حتى يحولا بينه وبين خصومه وأعدائه ، فيطلبان تبعة أبى القاسم

---

(٦٦) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٧٣ المصدر السابق .

الافليلى ، فيأتى اليهما متعاظما ، متفاخرا ، لأنه من قبيلة أنف الناقة منشدا بيت الحطيئة المشهور :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وتبدأ المحاورة بينهما تابعة الافليلى يقول فيه « فتى لم أعرف على من قرأ ، وابن شهيد يقول لنفسه هذا هو المنهج الذى اتبعه الافليلى فى نقده ، فالعصا من العصية ، ان لم تعربى عن ذاتك ، وتظهرى بعض أدواتك(٦٨) .

وتشتد الخصومة بينهما ، فيعلن له تابعة الافليلى انه لم يقرأ كتاب سيبويه ولا كتاب الخليل ، ولا ابن درستويه ، ويعيد عليه ابن شهيد تمسكه بهذه الكتب فهى لا تصنع أديبا ولا تصقل متحدثا وعندما يقول له انى تعلمت البيان من المؤدبين يجدها ابن شهيد فرصة ليقول له : ان علم البيان هذا مما اختص به الله ذاته « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » ، ثم يصف له البيان بقوله : « ليس من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، هيهات حتى يكون المسك من أنفاسك ، والعنبر من أنقاسك(٦٩) ، وحتى يكون ساقك عذبا ، وكلامك رطبا ، ونفسك من نفسك ، وقليبك من قلبك ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه ، والرفيع فتضعه ، والقبيح فتحسنه »(٧٠) .

وهنا تثور خصومة بينه وبين تابعه بديع الزمان الهمذانى ، ويتطارحان الوصف ، ويظهر ابن شهيد قدرته ، وبذه لصاحب بديع الزمان ،

---

(٦٧) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٧٣ المصدر السابق .

(٦٨) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٧٤ المصدر السابق .

(٦٩) أنفاسك بالقاف أى مما يظهر أثره على كلامك ، لأن النقس هو المداد الذى يكتب به .

(٧٠) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٧٤ المصدر السابق .

فيضرب الأرض برجله حسرة وكمدا ، ويغوص فيها فلا يرى بعد ذلك، ثم تنشأ محاورة أخرى بينه وبين صاحب الافليلى فى شعره ، فيقول له شعرا يعجب الجن قاطبة ، وفى نهـاية اللقاء يعجب الأستاذان من شعره ونثره فيجـيزانه على انه شـاعر خطيب ، وينفض المجلس ، والأبصار اليه ناظرة والأعناق نحوه مائلة .

واذا كان ابن شهيد قد اكتفى فى هذه المقابلة ببعض الآراء التى قيلت فى شعره ونثره ، فقد ذكر لنا فى نهاية اللقاء أن الجميع شهد له بالشاعرية والقدرة البيانية ــ فانه فى مقابلة أخرى يقص علينـا بعض الآراء التى قيلت حول شعر بعض الشعراء ، وهى توحى لنا بما كان يشغل به ابن شهيد من هذه المناظرات القديمة التى كان النقاد القدامى يرصدونها ، والتى وردت فى الصـدر الأول ، فقد كان النقاد حينذاك يشغلون بأشعر بيت قالته العرب ، أو بأغزل بيت ، أو بأشعر الشعراء ، ويتركون أحكامهم دون تعليل ، وأحيانا كانوا يشغلون ببعض المعـانى التى تعاورتها الشعراء ، وفاق بعضهم بعضا فيها .

فمن ذلك ما جاء فى قول ابن شهيد : « وحضرت أنا ــ أيضا ــ وزهير مجلسا من مجـالس الجـن فتذاكرنا ما تعاورته الشـعراء من المعانى ، ومن زاد فأحسن الأخـذ ، ومن قصر ، فأنشـد قول الأفوه بعض من حضر :

وترى الطـير على آثارنـا
رأى عـين ثقـة أن سـتمار

وأنشد آخر قول النابغة :

اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طـير تهتدى بعصائب

تراهن خلف القوم خزرا عيونها
جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيلـه
اذا ما التقى الجيشان أول غالب

وأنشد آخر قول أبى نواس :

تتأبى الطير غدوته
ثقة بالشبع من جزره

وأنشد آخر قول صريع الغوانى :

قد عود الطير عادات وثقن بها
فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وأنشد آخر قول أبى تمام :

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى
بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها
من الجيش الا انها لم تقاتل

فقال شمردل السحابى : كلهم قصر عن النابغة : لأنه زاد فى المعنى ، ودل على أن الطير انما أكلت أعداء الممدوح ، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد ما نواه الشاعر ، وان كان أبو تمام قد زاد فى المعنى ، وانما المحسن المتخلص المتنبى حيث يقول :

له عسكرا خيل وطير اذا رمى بها عسكرا لم تبق الا جماجمة

وكان بالحضرة فتى حسن البزة ، فاحتد لقول شمردل ، فقال :

الأمر على ما ذكرت يا شمردل ، ولكن ما تسأل الطير اذا شبعت أى القبيلين الغالب • واما الطير الآخر فلا أدرى لأى معنى عافت الطير الجماجم دون عظام السوق والأذرع والقفازات والعصاعص ، ولكن خلص هذا المعنى كله ، وزاد فيه ، وأحسن التركيب ، ودل بلفظة واحدة على ما دل عليه شعر النابغة وبيت المتنبى من أن القتلى التى اكلتها الطير أعداء الممدوح ، فانك من الصقعب فى قوله :

وتدرى سباع الطير أن كماته
اذا لقيت صيد الكماة سباع
لهن لعاب فى الهواء وهزة
اذا جد بين الدارعين قراع
تطير جياعا فوقه وتردها
ظباه الى الأوكار وهى شباع
تملك بالاحسان ريقة رقها
فهن رقيق يشترى ويباع
وألحم من أفراخها فهى طوعه
لدى كل حرب والملوك نطاع
تماصع جرحاها فيجهز نفرها
عليهم ، وللطير العتاق مصاع(٧١)

---

(٧١) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن شهيد ص ١٢٣ تحت عنوان « فى مدح ممدوح غير معروف » وقد علق محقق الذخيرة على هذا الأبيات فقال : « أورد ابن خلطان (١ ـ ١١٧) يبين من هذه القصيدة ونسبهما لابن شهيد ، ولعله تابع فى ذلك صاحب المطرب : ١٦١ ، ونرى ابن شهيد هنا ينسب الأبيات الى جنى اسمه فانك بن الصقعب . فهل هو يعنى نفسه ؟ ان جنيه هو زهير لافانك . فهل كان له غير تابع واحد ؟ يبدو ذلك ؟ لأن هذا الجنى نفسه هو الذى استطاع أن يأخذ =

فاهتز المجلس لقوله ، وعلموا صـــدقه ، فقلت لزهير : من فاتك بين الصقعب ؟ قال : يعنى نفسه • قلت له فهلا عرفتنى شأنه منذ حين ؟ [انى لأرى نزعات كريمة] وقمت فجلست اليه جلسة المعظم له فاستدار نحوى مكرما لمكانى ــ فقلت : جد أرضنا ــ أعزك الله ــ بسحابك ، وأمطرنا بعيون آدابك ، قال : سل عما شئت ، قلت : أى معنى سبقك الى الاحسان فيه غيرك فوجدته حين رمته صـــعبا عليك الا انك نفذت فيه ؟ قال : معنى قول الكندى :

سموت اليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

قلت أعزك الله : هـــو من العقم • ألا ترى عمر بن أبى ربيعة ، وهو من أطبع النـــاس حين رام الدنو منه والالمـــام به كيف افتضح فى قـــوله :

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ ـحباب وركنى خيفة القوم أزور

قال : صدقت • انه أساء قسمة البيت ، وأراد أن يلطف الفواصل فجاء مقبلا بركن كركته أزور ، فأعجبنى ذلك منه ، ومازلت مقدما لهذا المعنى رجلا ومؤخرا عنه أخرى ، حتى مررت بشيخ يعلم بنيا له صناعة الشعر ، وهو يقول له : اذا اعتمدت معنى سبقك اليه غيرك ، فأحسن تراكيبه ، وأرق حاشيته ، فاضرب عنه جملة ، وان لم يكن بدفنى غير العروض التى تقدم اليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى منتك فتذكرت قول الشاعر وقد كنت أنسيته :

معنى امرىء القيس « سموت اليها » البيت ، وأن يحله فى أبياته « ولما تملأ من سكره » ، وهذا أمر معروف من فعل ابن شهيد والأبيات ثابتة له . فلماذا اختار ابن شهيد فى هذا الموقف أن يكون له تابعـــان ؟ الذخيرة جـ ١ ط ذيل الصفحة رقم ٢٨٥ .

لما تسامى النجم فى أفقه
ولاحت الجوزاء والمرزم
أقبلت والوطء خفيف كما
ينساب عن مكمنه الأرقم(٧٢)

فعلمت أنه صدق ، وابن ربيعه لو ركب عروضه لخلص ، فقلت أنا فى ذلك :

ولما تملا من سكره
فنام ونامت عيون العسس
دنوت اليه على بعده
دنو رفيق درى ما التمس
أدب اليه دبيب الكرى
وأسمو اليه سمو النفس
وبت به ليلتى ناعما
الى أن تبسم ثغر الغلس
أقبل منه بياض الطلا
وأرشف منه سواد اللعس(٧٣)

فقمت وقبلت على رأسه ، وقلت لله درأبيك ! .

---

(٧٢) هذان البيتان لاسماعيل بن يسار من قصيدة له فى الأغانى ج ٤ ص ٤١٦ والقصيدة التى منها البيتان مطلعها :

كلتم أنت الهم يا كلتم وأنتم دائى الذى أكتم

(٧٣) وردت هذه المقطوعة فى ديوان ابن شهيد ص ١٢٠ تحت عنوان « معارضة لامرىء القيس مع اختلاف فى الترتيب فقد جاء البيت الخامس رابعا فى الديوان والرابع خامسا .

ثم يستطرد ابن شهيد ليقص علينا موقفا حدث له مع ذلك الجنى ، ومع جنى قبالته ، فاستنشده فأنشد له من شعره ، ثم لما وجده قد تفوق عليه صاح صيحة منكرة من صياح الجن كاد ينخب لهـا فـؤاده فزعا منه(٧٤) .

وقد استنشده جنى آخر فأنشده كثيرا من شعره ، ثم قال له بعض الأشعار التى رواها الجنى لوالد ابن شهيد وأخيه وجده وعمه ، فلما انتهى ابن شهيد من نسبة هذه الأبيات الى ذويها قال له الجنى : والذى نفس فرعون بيده لا عرضت لك أبدا انى أراك عريقا فى الكلام ، ثم قل واضمحل ، حتى ان الخنفساء لتدوسه فلا يشعل رجليها(٧٥) .

وهذا الكلام لعل ابن شهيد كان يرد به على معاصريه وخصومه ، فهو رجل له باع طويلة فى الشـعر ، وله أصـلة حيث انه نشـأ فى أسرة شاعرة .

ولا يفوت ابن شهيد أن يعقد فصلا فى رسالته على ألسنة الطيـور والحيوانات من محر الجن ، وبغالها وأوزها ، وهو ملحظ من ابن شهيد له وجاهته فهو يريد أن يصور عالم الجن على انه عالم فيه كل مقومات الحياة كعالمنا ، ففيه الجبال والوهاد ، وفيه الأخضر واليـابس وفيه الماء والصـحراء ، وفيه الأبقـار والحمر والبغـال والأوز وغير ذلك ممايموج به ذلك العالم .

وبغال الجن وأوزه وحمره على جانب من الأدب ، فهى تعـرض للشعر ، وتسأل عن أحكامه وتخوض فى نقده ، لقد عرضت عليه أنثى بغل قصيدتين : احداهما لبغل من بغال الجن ، والأخرى لدكين الحمار ،

---

(٧٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٨٩ المصدر السابق وينخب لهـا فؤاده : أى ينزع لها قلبه .

(٧٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩٦ المصدر السابق .

وطلبت منه الحكم فيهما ، وبيان الفاضل والمفضول ، الا أنه اعتذر عن الحكم ، لأن مثل هذا الشعر لا يحكم فيه الا أنف الناقة ، ففهمت البغلة أنه يفضل قصيدة البغل على قصيدة الحمار(٧٦) لكن هذه البغلة تقول له : اما تعرفتى أبا عامر ؟ قلت لو كانت ثم علامة ، فأماطت لثامها فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدها ، فتباكينا طويلا وأخذنا فى ذكر أيامنا ، فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت ما ترين . قالت : شب عمرو عن الطوق ! فما فعل الأحبة بعدى ؟ أهم على العهد ؟ قلت : شب الغلمان،وشاخ الفتيان،وتنكرت الخلان،ومن اخوانك من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة ، فتنفست الصعداء ، وقالت : سقاهم الله سبل العهد ، وان حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود بحرمة الأدب الا ما أقرأتهم منى السدم . قلت : كما تأمرين وأكثر .

وهذه المحاورة يدلل بها ابن شهيد على أن اراكب الأدباء والشعراء توابع مثلها مثل من ركبها وأن توابع الشعراء تجيد فهم الشعر والأدب، وشأنها تشاركهم ذلك النهج ، وتدخل معهم فى كل معترك .

وأخيرا يقص علينا ابن شيد قصة تلك الأوزة الجنية التى اعترضت على حكمه السابق فى الشعر الذى كان من بغل وحمار ، وهى صورة طريفة أنقلها للقارىء كى يقف على وصف ابن شهيد للأوزة وما دار بينهما من محاورة بقول ابن شهيد : « وكان فى البركة بقربنا أوزة بيضاء شهلاء فى مثل النعامة كأنما ذر عليها الكافور ، أو لبست غلالة من دمقس الحرير ، لم أر أخف من رأسها حركة ، ولا أحسن للماء فى ظهرها صبا ، تثنى سالفتها ، وتكسر حدقتها ، وتلولب قمحدوتها ، فترى الحسن مستعارا منها ، والشكل مأخوذا عنها ، فصاحت بالبغلة : لقد حكمتم بالهوى ، ورضيتم من حاكمكم بغير الرضى ، فقلت لزهير :

---

(٧٦) الذخيرة ط ١ جـ ١ ص ٢٩٧ ، والأبيات التى وردت بالذخيرة ليست بالديوان .

ما شأنها ؟ قال : هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة ، وتكنى أم خفيف وهى ذات حظ من الأدب ، فاستعد لها فقلت : أيتها الأوزة الجميلة العريضة : أيحسن بجمال حدقتيك واعتدل منكبيك ، واستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام، وتلقى الطارىء الغريب بمثل هذا المقال ؟ وأنا الذى همت بالأوز صبابة ، واحتملت فى الكلف بها غض كل مقلة ، وأنا الذى استرجعتها الى الوطن المألوف وحببتها الى كل غطريف ، فاتخذتها السادة بأرضنا ، واستهلك عليها الظرفاء منا ، ورضيت بدلا من العصافير ، ومكلمات الزرازير ، ونسيت لذه الحمام ، ونقار الديوك ، ونطاح الكباش ، فدخلها العجب من كلامى ، ثم ترفعت وقد اعترتها خفة شديدة فى مائها فمرة سابحة ، ومرة طائرة ، تنغمس هنا ، وتخرج هناك [قد تقيب جناحاها، وانتصبت ذناباها ، وهى تطرب تطريب السرور] وهذا الفعل معروف من الاوز عند الفرح والمرح ، ثم سكنت وأقامت عنقها ، وعرضت صدرها ، وعملت بمجدافها ، واستقبلتنا جائية كصدر المركب • فقالت : ايها الغار المغرور : كيف تحكم فى الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟ ما الذى تحسن ؟ قلت : ارتجال الشعر ، واقتضاب خطبه على حكم المقترح والنصبة • قالت : ليس عن هذا أسألك ، قلت : ولا بغير هذا أجاوبك ، قالت : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال • وأنا انما أردت بذلك احسان النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام ومادة البيان ، قلت : لا جواب عندى غير ما سمعت ، قالت : أقسم أن هذا منك غير داخل فى باب الجدل ، قلت : وبالجدل تطلبيننا [وقد عقدنا سلمه ، وكفينا حربه] وان ما رميتك به منه لأنفذ سهامه وأحد حرابه [وهو من تعاليم الله عز وجل عندنا فى الجدل فى محكم تنزيله : قالت : أقسم أن الله علمك الجدل فى كتابه ، قلت محمول منك أم خفيف ، لا يلزم الأوز حفظ أدب القرآن قال الله عز وجل فى محكم كتابه حاكيا عن نبيه ابراهيم عليه السلام (ربى الذى يحيى ويميت ،

قال أنا أحيى وأميت) فكان لهذا الكلام من الكافر جواب ، وعلى وجوبه مقال ، ولكن النبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ لما لاحت له الواضحة القاطعة رماه بها وأضرب عن الكلام الأول ، قال (فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر) وأنا لا أحسن غير ارتجال شعر واقتضاب خطبة على حكم المفتر حوالنصبة ، فاهتزت من جانبيها ، وحال الماء من عينيها ، وهمت بالطيران ، ثم اعتراها ما يعترى الأوز من الألفة وحسن المرجعة فقدمت عنقها ورأسها الينا تمشى نحونا رويدا رويدا ، وتنطق نطقا متداركا خفيفا ، وهو فعل الأوز اذا أنست ، واستراضت ، وتذللت ، على أنى أحب الأوز وأستظرف حركاتها ، وما يعرض من سخافاتها] .

وأخيرا ينهى ابن شهيد حديثه مع الأوزة فيسألها رأيها قائلا : الأدب أفضل أم العقل ؟ فتجيبه : بل العقل ، فيداعبها بقوله : هل تعرفين فى الخلائق أحمق من أوزة ، ودعينى من مثلهم فى الحبارى ؟ تقول الأوزة لا . قلت فتطلبى عقل التجربة اذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ، فاذا أحرزت منه ويؤت منه بحظ فحينئذ ناظرى فى الأدب فانصرفت وانصرفنا(٧٧) .

آراء ابن شهيد النقدية :

بعد هذه الجولة العجلى فى نثر ابن شهيد يمكننا أن نستشف من خلالها آراءه النقدية ، والتى أراد من خلالها رمى معاصريه بالجمرة ، وعدم اللحاق به بل انه فى غمرة الهجوم على معاصريه أمسك معوله لينقض على جميع السابقين من العلماء والمفكرين وصب جسام غضبه على المبرزين منهم ، وخصوصا الجاحظ الذى اتخذ منه ومن منهجه ذريعة

---

(٧٧) الخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٨ ــ ٣٠١ المصدر السابق .

للهجوم عليه ، بل وجعله فى بعض الأحيان أساسا لقاعدة نقدية بنى عليها كثيرا من الأحكام كما سترى .

ويبدو أن حدة الخصومة قد خفت عندما كتب رسالة التوابع والزوابع ، أو أنه كتب آراءه المتقدمة أيام أن كان فى فورة الشباب ، قبل أن تهدأ الفكرة ، ويلجأ الانسان الى التدبر ، واستعمال العقل ، ذلك لأننا رأينا ابن شهيد فى رسائله المتعددة ينحى باللائمة على معاصريه والسابقين عليه ، اما فى رسالة التوابع والزوابع فلم نر منه هذا الاتجاه النقدى المتطرف ، وان كان قد استطاع أن يجعلهم يجيزونه ، ويعترفون بأدبه شعرا ونثرا ، وهو ما كان يرمى اليه من رسائله .

بين ابن شهيد ومعاصريه :

لم تكن المعركة دائرة بين ابن شهيد وجميع معاصريه ، وانما كانت الخصومة بينه وبين صنف منهم تمثل فى علماء اللغة ، وجماعة المعلمين ، أولئك الذين كانوا يتعقبونه لابداء مساوئه ، وابراز سقطاته، ويبدو ان النحاة واللغويين كانوا يصنعون معه مثلما صنع أبو على الفارسى وغيره مع المتنبى فى المشرق مما دفع المتنبى الى قوله :

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصموا

لكن المتنبى اكتفى بمقولته « أنا أكبر من اللغة » وترك أعداءه يرمونه بكثير من القذائف التى جعلته يترك الساحة ، ويبتعد عن بلاط سيف الدولة الذى كان يحتضنهم ، وما ذلك الا لأنه لم يؤت ملكة النثر التى أوتيها ابن شهيد الذى اتخذ من لسانه وقلمه أداة للرد على خصومه وشانئيه .

وأول سهم وجهه ابن شهيد لخصومه أن البيان نفحة سماوية ولا

صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب فهو يقول : واصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، وانما يقوم بها الطبع مع وزنة من هذين النحو والغريب (٧٨) .

ثم يضع شرطا للطبع فيقول : ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه فى أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا ، يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها ، وأرق لباساتها ، ومن كان جسمه مستوليا على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن اندرجة الأولى فى الكمال والتمام ، وحسن الرونق والنظام ، فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائعة من الكلام تملأ القلوب ، وتشعف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها أسالم تعرفه ، وهذا هو الغريب ، أن يتركب الحسن من غير حسن كقول امرىء القيس :

تنورتهـا من أذرعـات وأهلهـا
بيثرب أدنى دارهـا نظر عـالى

فان هذه الديباجة اذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده (٧٩)

وهذا الكلام مسبوق بكلام العلماء عن الطبع والصنعة ، أو البديهة والارتجال أو الجمال والجلال ، فقد تحدث قديمـا عن ذلك ، حتى ان الجاحظ فى البيان والتبيين وفى الحيوان لمس هذا النوع .

ان هذا الحديث عن ابن شهيد يجرنا الى المطبوعين من الشعراء ، وأهل الصنعة منهم ، وهما صنفان من الشعراء نشآ منذ العصر الجاهلى

---

(٧٨) الذخيرة ق ١ ج ص ٢٣١ المصور السابق .
(٧٩) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ المصدر السابق .

الذى بدأ الشعر فيه طبعا خالصا ، ثم تحول مع مرور الزمن ، وتعدد الأحداث ، وحاجة الشعراء الى التأنى ، فى أفكارهم ، والتأنق فى عباراتهم الى ما أطلق عليه بعض النقاد صنعة ، وان كنت أرى أن الصنعة التى أطلقوها على الشعراء الجاهليين فيها جانب من المشاكلة اللفظية ، فليست صنعة زهير كصنعة أبى تمام ، ولا بديهة امرىء القيس وارتجاله كبديهة البحترى وارتجاله • ان الصنعة فى الشعر الجاهلى تعنى التروى فى قول الشعر ، والتأنى فى اختيار الكلمة الدالة على المعنى ، أما الصنعة عند المتأخرين فتعنى ذلك الذى عناه ابن طباطبا فى حديثه عن الشعر ، واختيار أبياته ، واستعاراته وتشبيهاته (٨٠) •

بل ان الجاحظ ذكر كلمة الالهام التى استبدلها ابن شهيد بكلمة الروحانية يقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا اجالة فكرة ، ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف همه الى الكلام والى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو الا أن يصرف همه الى جملة المذهب والى العمود الذى اليه يقصد فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه المعانى انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أخذا من ولده ، وكانوا أميين لايكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر ، وأكثرهم عليه أقدر وأقهر » (٨١) •

ولقد اتخذ ابن شهيد من قانونه فى الروحانية أو الالهام — كما سماه الجاحظ — مجالا للهجوم السافر على المعلمين ممن عنوا باللغة نحوا

---

(٨٠) أنظر كتابنا : صورة المرأة فى السبع الطوال ص ٢٥٠ ط مطبعة الأمانة •

(٨١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ١٣ ط دار الكتب العلمية • بيروت — لبنان •

وتصريفا ، فرماهم بأنهم أدركوا بالطبيعة وقصروا بالآله ، بل انه قد وضع مقياســا آخر هو أن الخلقة لهــا دخل كبير فى الالهام ، فالخلقة المستوية تلهم صاحبها جمالا فى التعبير ، وجلالا فى التفكير ، أما الخلقة المشوهة فانها لاتجر على صاحبها الا تشوها فكريا وتعبيريا .

وهذا منهج غريب ، ومقياس عجيب ، لعل أحدا من العلمــاء لم يتبعه اليه قبله الاما كان من علم النفس واستواء الأعضاء فى العصر الحديث لكن ابن شهيد اتخذ من هذا المقياس سلاحا سلطه على مناوئيه من علماء اللغة ، فهو يقول : وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة بحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون الى فطن حمئه ، وأذهان صدئة لا تنفذ لها فى شعاع الرقة ، ولا مدب لها فى أنوار البيان سقطت اليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها فيما يجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ومن لم تكن له آلة الصناعة فما هى مخصوصة بها لاتقوم تلك الصناعة الا بتلك الآلة (٨٢) .

ثم يقول : فهذه العصابة من المعلمين يدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ، وتقصــيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخــادمة لآلات الفهم البــاعثة لرقيق الــدم فى الشريانات الى القلب ، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى يعين على ذلك بالحدس ، وطريق الفراسة فساد الآلة الظاهرة كفرطحة الرأس ، وتسفيطه ، ونتوء القمحدوة والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة ، فنستعيذ بالله ألا يشوه خلقه

---

(٨٢) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٩ المصدر السابق .

قلوبنا ، ولا يجسى أجرام أكبادنا ، ويضم أوتارنا وأعصابنا ولا يعظم أفوفنا ، ولا يجعلنا مثلة للعالمين (٨٣)

ولقد سبق أن نبهت الى موقفه من أبى القاسم الاقليلى الذى رماه فى بعض رسائله بالجمود والتحجر ، وقفل باب السلاطين أمام أى راغب على الرغم من عدم ذيوع شعره ، أو شيوع نشره لكنه يبدو أنه عند الحاجة تخف حدة الخصومة فقد مدحه بيتين تقدم الحديث عنهما ،فهو يصفه فيهما بالتقوى والورع ، وأنه عالم جليل •

بين ابن شهيد والجاحظ :

واذا كانت الخصومة بين ابن شهيد ومعاصريه قد سلك فيها طريق التهكم والسخرية والاستهزاء بهذه العلوم التى درسوها ، والكتب التى حفظوها • فعندما يقول له أحدهم : ناقشنى فى كتاب الخليل يقول له ابن شهيد ساخرا ه وعندى فى زمبيل ، وعندما يقول له آخر : هل حفظت كتاب سيبويه ؟ يقول له ابن شهيد : خريت الهرة عليه وعلى كتاب ابن درستويه • وهكذا ، وهو أسلوب ينم عن شخصية عجيبة لا تعترف بموروث السابقين ، وهذا يؤكد لنا أن ابن شهيد عندما قصر عن فهم هذه المعارف نحا بالأئمة عليها وعلى من أوتى حظا فيها •

اذا كان ابن شهيد قد صنع ذلك مع معاصريه فانه قد صب جام غضبه على الجاحظ ، تلك الشخصية الفذة ، والعقلية التى لا تجارى فى عصرها ، وفيما تلاه من عصور ، وما ذلك الا لأن الجاحظ قد أعلى من شأن البيان ، ورفع من قدر أربابه ، وكأنه كان يريد منه أن يترك نه الحديث عن هذا الأمر ينفرد به ، ويشدو بمعرفته ، يقول ابن شهيد : « وقول الجاحظ : انا اذا أكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما فى رأس كل شهر ، ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما

---

(٨٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٤٠ المصدر السابق •

قنع منا بألف درهم ، ولم يقل هذا الا وقد ألف « كتاب البيان » ولو كشف فيه عن وجه التعليم ، وصور كيفية التدريج لأرى كيف وضع بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع فانها معادن الصنعة ، ومواضع مفاتيح الطريقة ، ولكنه استمسك بفائدته ، وضن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بثمره الفهم ، وعرف أن النفع كثير ، والشاكر قليل ، فلم يفد بما أوضح من أمر البيان فائدة غير أهله ، ومن كرع فى حوضه واستاف من نده ، وأما أن يخرج مبتدئا ، أو يعلم جاهلا فلا البتة »(٨٤) .

ثم أخذا ابن شهيد يسوق للناس جانبا من تعليمه بدأه بالنعى على التلاميذ فى زمانه ، فالبطالة عليهم غالية ، والسآمة عليهم مستولية ، وأخذ يسوق لنا طريقة تعليمه ، فهو يعلم التلاميذ أن للكلمات أنسابا ، وللحروف أرحاما ، فاذا جاوز النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، واذا ركبت صور الكلام من تلك . حسنت المناظر ، وطابت المخابر . أفهمت ؟ قال لى : اى والله » (٨٥) .

ويستمر فى تعليم صاحبه قوانين الفصاحة والبلاغة ، وبين الحين والآخر يقول له أفهمت ؟ ويقول له تلميذه : اى والله ، وكأنه بهذا يريد أن يثبت فى ذهن القارىء أن الجاحظ قد قصر فى هذا المجال ، وبخل فى هذا الميدان ، لأنه نظر فى كتاب البيان فلم يجد فيه الا أخبارا رويت ، وحوادث كتبت ، ولم يدر أن الجاحظ صنع ذلك ليقوى ملكة البيان لدى المتلقين ، فهل أراد من الجاحظ أن يأتى بتلاميذ يعلمهم علم البيان على طريقته التى ابتكرها مع جاره ؟ ان ذلك المنهج قد يستعمل مع شخص أو آخر لكن الذى يريد عموم الفائدة يسجل للتلاميذ مادة علمية يستطيعون بها بلوغ مآربهم ، والوصول الى ما يريدون .

---

(٨٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ المصدر السابق .
(٨٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٤ المصدر السابق .

فنحن لا نوافق ابن شهيد على ما رآه فى كتاب البيان ، ونفهم منه ـ كما فهم الدكتور زكى مبارك ـ أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وانما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ فى التأليف ، فهو ينتقل من فن الى فن،ومن كلام الى كلام جريا على طريقته فى تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات،وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ،حتى يهتم بالترتيب والتبويب ،وانما نتمثله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شىء ، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العالم من الضياع ، ويكفيهم أن يدونوا ما يسمعونه ، أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال (٨٦) ٠ى

ولم يكتف ابن شهيد بهذا الهجوم على الجاحظ ، بل اننا رأيناه فى مكان آخر يرمى الجاحظ بالحمق ، وعدم العقل ، فقد ذكر عنده الجاحظ ، وسهل بن هارون واتخذ من هذه المناقشة مجالا لبيان الأدوات التى يجب أن يتحلى بها الكاتب فقيل له : وأى أداة نقصت الجاحظ ؟ فقال : أول أدوات الكاتب العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد تجد عالما غير عاقل وجدليا غير حصيف وفقيها غير حليم وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر من نسبته الى الجاحظ ، لو شهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا ، ويعانى له اطفاء جمرة فتنة مستضلعا فى ذلك بعقله وجودة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال فى صفة غراميل البغال ، وغير الكلام فى الجزدان وبنات وردان ، وتبين أن بين العالم والكاتب فرقا »(٨٧) ٠

والواقع أن أبا عامر يخلط خلطا واضحا بين السياسة القائمة على

---

(٨٦) د٠ زكى مبارك النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٦١ ط دار الجيل بيروت ٠

(٨٧) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ المصدر السابق ٠

الخداع ، والدجل ، وبين العلم المتجرد الذى لا يعرف الذلة ، ولا يفهم معنى الاستكانة ، ذلك أن عزة العلم ، وإباء أهله لا يتفقان والتذلل والخضوع للأمراء وذوى السلطان بقصد الحصول على عرض زائل ، ونفوذ حائل .

وكأن أبا عامر يريد الجاحظ أن يكون خداعا مذفقا يتقرب الى الخلفاء بعلمه ودهائه معتمدا كل وسيلة لذلك يتكسب بهذا العلم فى اسلوب مزر من الذلة والضعف ، لا يتناسب وعلم الجاحظ وفضله فى الثقافة والأدب وبذلك بدأ أبو عامر فى صورة الأديب الذى لا يفهم سوى لغة المنفعة المادية على حساب كل شىء(٨٨) .

« ان هذا الكلام — كما يقول الدكتور زكى مبارك — يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب فى دنياه يكون فضله ، وهذا خطأ مبين .

لقد تكون دمامة الجاحظ هى التى قعدت به كما قعد بابن شهيد نفسه ثقل سمعه وكما تخلف صاحبه الافليلى لورم أنفه ، واذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا فى تركيب النفوس ؟ اننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمى اليه أمثال سهل بن هارون ، ولكن لاريب فى أن اعلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان ذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم فى مختلف الطبقات ، فليس من العيب أن يهتم بالصغائر فى العلوم لأن العلم فى أصغر

---

(٨٨) د. حازم عبد الله خضر ، ابن شهيد الأندلس حياته وشعره ص ٢٩٧ منشورات دار الثقافة والاعلام ، العراق .

جزئياته لا ينال من العالم غير الاكبار والاجلال ، ان من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذى يظفر به الكتاب السياسيون يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود فى أعمالهم الأدبية والعلمية ، واذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون فى ميدان السياسة ، وما عمله الجاحظ فى ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال ، ريا ويل أهل الفضل أن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات »(٨٩) .

وكلمة أخيرة نقولها فى هذا الصدد ذلك أن ابن شهيد الذى عاب سلوك الجاحظ وحط من شأنه ، ورماه بالحمق فى رسائله لم يلبث عند كتابة رسالة « التوابع والزوابع » أن اتخذ من الجاحظ أستاذا لجميع الكتاب والأدباء ، بل انه حرص على اجازته له ليكون كاتبا شاعرا ، وهذا ما يؤكد لنا أن ابن شهيد كتب رسالة التوابع والزوابع وهو فى سن التعقل ، بعد أن ساق آراءه المتقدمة وهو فى فورة الشباب ، وثورته على خصومه ومعارضيه .

آراء أخرى لابن شهيد :

على أن هناك آراء نقدية وقف عندها العلماء ، ورأوا فيها جدة وابتكارا نجملها فيما يلى :

١ ــ فقد أقر ابن شهيد بتغير العادة حسب تغير الأزمنة ، وبأن ما يصلح فى عصر ربما لا يصلح فى عصر آخر ، كذلك الحال فى الصناعتين الشعر والنثر « وكما أن لكل مقام مقالا ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه ، وكما أن للدنيا

---

(٨٩) د. زكى مبارك . النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٧٠ ــ ٧١ المرجع السابق .

دولا فكذلك للكلام نقل وتغاير فى العادة ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول فى هذا الفن الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان فالصنعة معهم أفسح باعا وأشد دراعا ، وأنور شعاعا لرجحان تلك العقول ، واتساع تلك القرائح فى المعاوم ، ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقه ابراهيم العباس ، ومحمد بن الزيات ، وابنى وهب ونظرائهم ، فرقت الطبائع ، وخف ثقل النفوس ، ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف ، وبرقة الكلام كلف ، فكانت احالة أخرى الى طريقة البديع وشمس المعالى ، وأصحابهما »(٩٠) .

ثم يقرر أن ما يجرى على الكتاب يجرى على الشعراء فيقول « وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة فى الصنعة بانتقال الزمان،وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه،وتهش له قلوب أهله ، فكان من صريع الغوانى وبشار وأبى نواس وأصحابهم فى البديع ما كان من استعمال أفانينه والزيادة فى تفريع فنونه،ثم جاء أبو تمام فأسرف فى التجنيس،وخرج عن العادة ، وطلب ذلك منه ، وامتثله الناس ، فكل شعر لا يكون اليوم تجنيسا ، أو ما يشبهه تمجه الآذان ، والتوسط فى الأمر أعدل ، ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغوانى على أبى تمام ، لأنه لبس ديباجة المحدثين على لأمة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب »(٩١) .

فابن شهيد هنا يتفق مع ما أعلنه النقاد المشارقة من أن للأزمنة والأمكنة دورا فى نتاج الشاعر أو الكاتب فما يصلح فى عصر لا يصلح فى غيره،وما يصلح فى مكن لا يصلح فى غيره،نرى ذلك عند الجاحظ الذى وقف من قضية المحدثين من الشعراء موقفا يحمد عليه حيث نعى على

---

(٩٠) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٧ المصدر السابق .

(٩١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٧ المصدر السابق .

أبى عمرو بن العلاء والأصمعى موقفهما من الشعراء المحدثين ، وكذلك صنع ابن قتيبة ، والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى .

٢ — وابن شهيد يرتب أهل صنعة الكلام حسب اجادتهم لهذه الصنعة ، فهم فى رأيه ثلاث طبقات ، طبقة تجيد الكلام ، وتخترع المعانى وطبقته ماهرة فى التلفيق والحيلة ، وطبقه تبنى الكلام على الانصباب مع التوفيق التام بين الفكرة الصعبة ، ومائية الشكل فهو يقول « وأهل صناعة الكلام متباينون فى المنزلة متفاضلون فى شرف المرتبة على مقدار احسانهم وتصرفهم .

« فمنهم الذى ينظم الأوصاف ، ويخترع المعانى ، ويحرز جيد اللفظ الا انه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحته التأليف ، حتى انه ربما قصر فى الوصف وأساء الوضع » فهذا المصنف فى رأيه لا يمكن أن تواتيه الفكرة الا فى الأبيات القليلة اما اذا طلب الاطالة والاستمرار وقف وانفل وتلاشى واضمحل .

« ومنهم الكارع فى بحر الغزارة الفادح بشعاع البراعة الذى يمر مر السيل فى اندفاعه والشؤبوب فى انصبابه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكل على طولى العمل ، لا تتاح له حاجة الا اقتنصها ، ولا تنازله طائرة الا اختطفها جرأته كشفرته ، وبديهته كفكرته ، فذلك الألسن يوم حرب الكلام لا تخطىء ضربته ، ولا تصاب غرته » .

« ومنهم من يتجافى الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك فى أنحاء من الصنعة ، وجل ما عنده تلفيق وحيلة ، وبذلك يصاحب الأيام ، ويجارى أبناء الزمان » .

ومن خرج — فى رأيه — من هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل فى صناعة أهل الكلام(٩٢) .

---

(٩٢) الذخيرة ق ١ جـ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ المصدر السابق .

٣ ــ وهناك موضوع آخر لمسه ابن شهيد ، وألح عليه كثيرا، فقد قرر أن الناقد البصير ، أو الأديب الفحل هو الذى يدرك التناسب بين الكلمات والحروف ، فاذا أراد تركيب الكلام من حروف متنافرة فانه يبتعد بذلك عن العذوبة المطلوبة فى قوانين الكلام ، فهو يقول لصاحبه الذى أراد تعليمه صنعة الكلام « ان للحروف انسابا وقرابات تبدو فى الكلمات ، فاذا جاوز النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، واذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر، وطابت المخابر أفهمت ؟ قال لى : اى والله قلت له : وللعذوبة اذا طلبت ، وللفصاحة اذا التمست قوانين من الكلام من طلب بها أدرك، ومن نكب عنها قصر • أفهمت ؟ قال : نعم ، وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو ، وفصيح الغريب ، وتهرب عن قبيحه قال : أجل •

ثم يسوق له مثلا تطبيقيا يستنبط منه موقع الكلمات غير انه اكتفى بقوله وقعت لفظة كذا موقعا لذيذا ، ووضعت كلمة كذا وضعا مليحا ، وسرت جملة كذا مسرى لطيفا ، وهو منهج بدائى فى النقد ، وكان الأولى به أن يبين سر وقوع هذه الكلمة بين سابقتها ولاحقتها كما صنع الامام عبد القاهر الجرجانى فى نظرية العلاقات والنظم •

على انه مسبوق بهذا الكلام ــ أيضا ــ فقد كتب الصاحب بن عباد رسالته « الكشف عن مساوىء المتنبى » وقال فى مقدمتها : « وهأنا أجالس الكبراء وأكاثر الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجارى الشعراء بالجبال تارة ، وبالعراق مرة وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب فما رأيت من يعرف الشعر معرفته ، وينقده حق نقده غير الأستاذ أبى الفضل ابن العميد ،

فانه يجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن »(٩٣) •

٤ — ولقد لمس ابن شهيد موضوع البلاغة ، وانها فى نظره تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، فالبلاغة « صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب، فهى ترجع الى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى الى جميع الناس فى جميع الأحوال ، وانما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه الى الغرض الذى يرمى اليه عند الخطاب »(٩٤) •

يقول ابن شهيد « وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله ، فيصادف منا حالة لا تتسع له فى كبير مبرة ، فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يعتمد بها البقالين ، ومشيخة القصابين ، فاذا قرعت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم مرحلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص ذلك البائس فى عيونهم ، فما شئت اذ ذاك من خبزة وثيرة ، يحشى بها كمة ، ورقبة ثمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز نقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقومه ، وسنبوسقه ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذجة رطبة يحتك بها حنكه ، فلا يكاد البائس يستتم ذلك ، حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يلطعها راغبا فى أن نكشف له السر الذى حرك العامة فبذلت ما عندها له ، وبادرت بدرها اليه ، وتعليمه ذلك النحو من أنحاء السحر لا نستطيعه ، لأن هذا الذى يريده هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب »(٩٥) •

---

(٩٣) الابانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤٠ تحقيق ابراهيم السمرقى البساطى ط دار المعارف •

(٩٤) د• زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ المرجع السابق •

(٩٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ المصدر السابق •

واذا كان ابن شهيد يريد أن يقول : ان للعامة خطابا لا يكون للخاصة ، وان للدهماء كلاما يجب أن يساق اليهم ليفهموه ، ويعلموا مضمونه ، وهذا الأمر لا يصل اليه الا من أوتى حظا وافرا من علوم البيان لكنه ساق لنا مثالا أشبه ما يكون بأدب بديع الزمان الهمذانى الذى كان يكدى به ، ويسوقه ليسلب ما فى أيدى السامعين ، وأدب الكدية والمكدين يمخرقون فيه بكلمات وألفاظ الغرض منها الاستحواذ على عطف الناس وعطاياهم ، ثم أن ابن شهيد يقوم بتعليم هؤلاء الناس بعض الأبيات التى يتسولون بها ، والتى تفهمها العامة من القصابين وأصحاب الحوانيت الذين لا يستطيعون فهم الشعر الرصين الذى لا يفهمه الا الخاصة من أرباب العقول ، وذوى العلم والآداب ، وبذلك ينزل بأدبه الى مستواهم ، وينحدر بشعره الى درجة الانحطاط ولقد قيل أن ابن الرومى سئل يوما فقيل له : لم لا تقول ما يفهم ؟ فقال : ولم لا يفهم ما يقال ؟ فرد بذلك على من يريد منه النزول بشعره الى مستوى هو يكره النزول اليه .

« وهذا الذى يقوله ابن شهيد يحتاج الى تحديد فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ ، وقد تبدو البلاغة فى بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن فى تلك المواطن وحدها يحتاج الى بيان الكتاب والخطباء والشعراء ، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه فى درك ما يتعسر على سواد المنشئين ، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها ، وخبث ولؤم جوانب من الضعف ينفذ اليها القول ، حتى يصل المنشىء بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود ، وسر البلاغة لا يظهر الا فى المواطن التى تبدو مفروغا من الكلام فيها ، وميئوسا من فائدة العود الى شرحها ، وتفصيلها ، فان المنشىء لا يعجز الا حيث يكون الجو جو بداهة وظهور ، بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مردد معاد ، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحول المسائل

الظاهرة الى مشاكل عقلية وروحية ، واجتماعية ، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم الى جواء من البحث والتفكير ، ويفهم موقف الحيرة والتردد من الخير والشر والبر والعقوق ، فليس البليغ هو من يأتى فقط بالبدع الطريف ، ولكن البليغ هو من يحول الموضوعات العادية الى شئون جدية طريفة تتخلل فيها عزائم أهل الشح ، أو تنهض ضمائر أهل الجمود وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم ، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجر القبيح •

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس الى مكان الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقحون أمام دعوات الخير اولبر والاحسان ، ففى كل نفس مهما لؤمت جوانب غافية يقدر على ايقاظها البارعون من أهل البيان »(٩٦) •

٥ ــ وهناك أمر آخر عرض له ابن رشيق تمثل فى توجيه النقاد توجيها يجعلهم لا ينخدعون بمظهر الكلام ، فمهمة الناقد هى الكشف عن مدى التلاؤم بين الفكرة الصعبة ، ومائية الشكل ، فهو ينص على أن الناقد يجب عليه ألا يستهويه الشكل وينسيه التفتيش عن المعنى « فقد ترى الشعر فضى البشرة » وهو رصاصى المكسر ذا ثوب معضد أو مهلهل ، وهو مشتمل على بهق أو برص مبنيا بلين التماثيل وصفوان التهاويل •

« ولعل أهم خداع تنبه اليه ابن شهيد هو الخداع العاطفى حيث يضطرم نيران الجوى ، ويلمع البرق ، ويسن الودق ، وتسفح الدموع ،

---

(٩٦) د• زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٦٦ المرجع السابق •

والكلام فى حقيقته كسراب بقيعة اذ الفنان الحق فى رأيه هو الذى ، يتصرف تصرف الملح ، ويتلون تلون أبى براقش • وهذا كلام موهم ، ولكن ابن شهيد يعنى القدرة على القريض رغم تنوع الموضوع ، فيبقى كلام الشاعر فى الناس على مر الأدهار ، ويتخذونه اتخاذ الملح ، ويفسرونه بما يلائم تغير الأزمنة »(٩٧) •

وبعد فهذه جولة جلناها فى نثر ابن شهيد الأندلس ، اقتضت طبيعة البحث أن نحث فيها الخطأ ، وتغز السير ، ولعل فى هذه الجولة غناء لمن يريد الوقوف على ذلك المنهج الذى سلكه ابن شهيد فى رسائله التى توجها برسالة التوابع والزوابع •

فاللهم هيىء لنا من أمرنا رشدا ، وأنت حسبنا ونعم الوكيل •••

أ ــ د • عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بالمنوفية

---

(٩٧) د• احسان عباس : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص٤٨٢ ط دار الثقافة ببيروت •